التراث الأرثوذكسي

ISSN 1814-7038

السنة التاسعة عشرة، العدد السادس، آذار ٢٠٢٣

مختارات آبائية

القديس لوقا رئيس أساقفة سيمفيروبول، تفسير صلاة القديس أفرام السرياني

لاهوت

المتروبوليت أثناسيوس مطران ليماسول. أحد الأرثوذكسية

بافلوس موكتاروذيس، القديس غريغوريوس بالاماس والهدوئيون

الخورية سميرة عوض ملكي، نكران الذات وحمل الصليب

ثيوذور روكاس، إشارة الصليب في العهد القديم

حياة روحية

المتروبوليت أثناسيوس مطران ليماسول، كيفية التعامل مع الأفكار السيئة والإخفاقات في الحياة الروحية

المتقدم في الكهنة جاورجيوس دوباراكيس، ذهني يجول في وقت الصلاة

تفسير صلاة القديس أفرام السرياني

القديس لوقا رئيس أساقفة سيمفيروبول وكل القرم

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أيها الرب وسيد حياتي، أعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطّال، وأنعم عليّ أنا عبدك الخاطئ بروح العفة واتضاع الفكر والصبر والمحبة، نعم يا ملكي وإلهي هبني أن أعرف ذنوبي وعيوبي وألّا أدين إخوتي، فإنك المبارك إلى الأبد. آمين.

مدخل

هذه هي صلاة القديس أفرام السرياني التي سبق أن أخبرت عنها، وقد قرأت بعض أعماله العظيمة. لماذا تعطي الكنيسة المقدسة هذه الصلاة مكاناً بارزاً بشكل غير عادي في الخِدَم الإلهية؟ لماذا تتكرر مرات عديدة خلال خِدَم الصوم الإلهي؟ ليس بدون سبب خاص - أنت نفسك تشعر بقلبك بالسبب - هذه الصلاة تخترق القلب بشكل لا مثيل له، وأنت تشعر بقوتها الإلهية الخاصة والاستثنائية.

ما السبب؟ لأنها تدفقت من قلب متطهر وكامل ومتقدس بالكلّية، من عقل مستنير بنعمة الله، صار مشاركاً في فكر المسيح. ومن هنا تأتي مثل هذه القوة ومثل هذا التأثير السرّي على القلب المسيحي من خلال هذه الصلاة الرائعة.

بادئ ذي بدء، أقول إن حقيقة أن يطلب القديس أفرام من الله أن يخلّصه من كل شر يخالف الله، لكي يمنحه الرب الفضائل العظمى ،هو أمر بالغ الأهمية. لماذا يطلبها؟ هناك أناس، وخاصة في العصور الوثنية القديمة، كانوا يعتمدون على أنفسهم في كل شيء، ويعتقدون أن كل شيء يمكن تحقيقه من خلال قوى أذهانهم ومشاعرهم. حتى الآن هناك أشخاص لا يفهمون ذلك كثيراً ، وإلى ذلك، فإن الأهم والأثمن والأكثر سرية لا يُبلَغ إليه بذهننا وشعورنا.

يتذكر الأشخاص الذين يفهمون هذا ما قاله الرسول بولس: "لأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ مَا أَنَا أَفْعَلُهُ، إِذْ لَسْتُ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُهُ، بَلْ مَا أُبْغِضُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ" (رومية ٧:١٥). هذا ما يقوله الرسول الأعظم مدركاً عجزه عن اتباع طريق الخير، فاهماً بعمق أن جسده، الذي يشدّ إلى أسفل ولا يدع القلب يرتفع نحو الله، له قوة هائلة عليه. هو كان يتوق، متألماً في نفسه ، لأنه لم يفعل ذلك الخير الذي تتوق إليه نفسه، بل فعل الشر الذي لم يرده.

إذ قد أدرك القديس أفرام ذلك بعمقٍ صلّى إلى الله أن يحرره من الرذائل ويمنحه القوة لفعل الخير. نحصل على القوة لعمل الخير من الله فقط، ونحصل على القوة للتخلص من الرذائل من الله فقط. تدرك روح كل مسيحي هذا الأمر بشكل سرّي، ولهذا فإن صلاة القديس أفرام السرياني مؤثرة للغاية.

تعمّقْ في هذه الصلاة، وفكّرْ لماذا لا يطلب من الله ببساطة أن ينقذه من كذا وكذا ويعطيه فضائل كذا وكذا. لماذا يقول: "أعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطّال"؟ لماذا يتكلم عن روح الرذائل وروح الفضائل؟ هذا أمر مهم ينبغي فهمه.

أنت تعلم أن للأشياء رائحة خاصة بها تميّزها. إذا بقيت أغراضك في غرفتك وظلت الغرفة مغلقة، ستبقى رائحتك وروح هذه الأشياء فيها. أنت تعلم أنه إذا صببت مادة عطرية في إناء، ثم أفرغت الإناء وغسلته، فستبقى الرائحة لفترة طويلة؛ والعكس صحيح، إذا انسكب شيء كريه الرائحة، فستبقى الروح النتنة لفترة طويلة جداً. هذا ما يحدث في النفس البشرية. في نفس الإنسان، كل الرذائل التي يخطأ بها تترك طيفها، تترك مسحتَها، من ناحية أخرى، كل الخير الذي يصنعه يترك نوره. إذا كان الإنسان يقوم بأعمال شريرة دائماً، وإذا كانت نفسه مشبعة بالرذائل، فإن روح هذه الرذائل ستبقى في النفس إلى الأبد. إذا كان الإنسان يعيش حياة طيبة، ويفعل الكثير من الخير، وإذا كان يقدّس نفسه باستمرار بالصلاة، فهو يكون مشبعاً بروح الصلاة.

نحن نعرف من الخبرة اليومية أنه يمكننا بالفعل، مع شيء من الدراية، وأحياناً في اللقاء الأول، أن نكتشف نوع الروح الذي يكون عليه الشخص. إذا قابلتَ شخصاً غارقاً في الخطايا، فستكتشف نوع الروح الذي يكون عليه هذا الشخص. الأمر مشابه لبحث الكلب عن الرائحة التي تظل حتى على آثار مسير الشخص، وتقود إليه.

لكل إنسان روحه الخاصة، لذلك فإن القديس أفرام السرياني يطلب من الله، ليس فقط أن ينقذه من الرذائل ويمنحه الفضائل، بل يطلب من الرب أن يمنحه روح هذه الفضائل، لينقذه من روح الرذيلة، حتى لا يبقى أي أثر لرائحة الرذيلة وتفوح رائحة عطر المسيح.

على المرء أن يعلم أن التخلص من الرذائل الفردية أسهل بكثير من التخلص من روح هذه الرذائل. هذا الروح يتشبث بقلوبنا بشدة، ومن الممكن التخلص تماماً من الروح الشرير تدريجياً فقط، بالصلاة إلى الله ليساعدنا، ليخلّصنا من هذا الروح الشرير. هكذا يُفهم كلام أفرام السوري. ربما يمكنُ فَهمه بشكل مباشر أكثر.

إننا نعيش ونعمل دائماً تحت التأثير الروحي لشيئين: من ناحية، التأثير المقدّس المليء بالنعمة من الله والملائكة والقديسين، وعلى وجه الخصوص الملاك الحارس؛ ومن ناحية أخرى، فإن روح إبليس، الروح الشيطانية، تتدفق علينا دائماً بسَيل مظلم. وكما يوجد بين ملائكة النور ملائكة يحملون فضائل مقدسة فردية، كذلك يوجد بين الشياطين من يحملون خطايا فردية تؤثر علينا دائماً. لذلك يطلب القديس أفرام من الله، أن تُطرَد، بنعمة الله، الأرواحُ الشيطانية المظلمة والماكرة التي تقودنا إلى الخطيئة.

أرأيتَ ما تعنيه هذه الكلمات العميقة لأفرام السوري؟ إنه لصعب للغاية أن نطلب بوعي عتقَنا من روح الشر والحقد وجميع الرذائل، لأن سلطة الشياطين علينا قوية جداً. تذكر أنه لا يمكنك بجهودك الخاصة تجنب التأثير المظلم الكارثي لهذه الأرواح، لذا صلِّ بتواضع إلى الله، كما يُعلِّم أفرام السوري الصلاة.

عن البطالة

هكذا يبدأ القديس أفرام السرياني صلاته العظيمة. لماذا يبدأ بطلب الانعتاق من البطالة وكأنه ليس هناك رذائل أشد خطورة منها؟

يحكي القديس أفرام عن البطالة لأنه يعرف أكثر منّا ما هو أكثر أهمية، وما هو أكثر كارثيـة، وأيُّهـا هي الرذيلـة الأقوى، والأكثر خطورة. وإذا ما تكلمنا عن البطالة، فإنه يبدأ صلاته طالباً عتقه من روح البطالـة، مـا يعـني أنهـا رذيلة خطيرة للغاية.

بالنظر إلى البطالة من وجهة نظر دنيوية عادية، نرى أنهـا أمـر ممقـوت ويسـتحق إدانـة شـاملة. تعرفـون كم أن الناس البطالين، الذين لا يريدون العمل، يقضون حياتهم في كسـل كامـل ويتوجهـون نحـو العديـد من الرذائـل. البطالة هي أم رذائل كثيرة. يستلقي الأشخاص البطالون ولا يفعلون شيئاً، إنما يجلسـون ويحلمـون. بمـاذا؟ بلا شيء، غالباً ما تتجوّل أفكارهم بلا هدف بالكلية؛ يتذكرون الماضي، تلك السـعادة، تلـك الأفـراح الـتي عاشـوها، يحلمون بأن كل هذا سيحدث مرة أخرى. إنهم يفكرون في هذا فقط، في عـدم وجـود شـيء جـاد، ولا يركـزون أفكارهم على عمق جدية الحياة، على المسؤولية الهائلة الـتي تقـع على عـاتق الجميـع ليس فقـط أمـام النـاس، ولكن أيضاً أمام الله نفسه.

الشخص البطال هو عضو ضار في المجتمع، وعضو ضار في الدولة. تؤدي البطالة إلى رذائل عظيمـة وخطـيرة. البطالون يعجزون عن العمل، فيقعون في براثن الفقر والجوع. لا يأتي المـال من تلقـاء نفسـه، والـثروة لا تـأتي، هم لا يريدون العمل، ولا شيء يأتي من تلقاء نفسه، ويحتاج الإنسان إلى كل ما هـو ضـروري للحيـاة، بالإضـافة إلى ما يتجاوز حدود ما هو ضروري: يحتاج إلى ملذات ، يحتاج إلى رفاهيـة في الحيـاة. للحصـول على المـال، يخترع وسائل مختلفة، غالباً ما تكون خاطئـة، ويصـبح مسـتعداً لعمـل كـل مـا هـو خسـيس ومظلم، من سـرقة وأكاذيب وخداع ورشاوى. لهذا، البطالة هي الكسل من وجهة نظر دنيوية بحتة.

وماذا نقول إذا تحدثنا عن الكسل في حياتنا الروحيـة؟ هـل يسـتحق حقـاً إدانـة أقـل ممـا يسـتحقه في مجـال حياتنا المادية؟ بل إنه أكثر كارثية في الحياة الروحيـة. بالبطالـة تُفقـد كـل قـدرة لنـا إذ تبقى بـدون تمـرين. إذا توقف الموسيقي الذي وصل إلى الكمال في العزف عن الممارسة، وإذا ترك الموسيقى تماماً لسنوات فإنـه يفقـد كماله في العزف.

كل عضو في جسمنا حين يبقى بدون تمرين يدخل في حالـة من الخمـول والعجـز عن العمـل. الشـخص الـدائم الاستلقاء يفقـد القـدرة على المشـي. من لا يعمـل بيديـه يسـبب ترهـل عضـلات اليـدين. من دون نشـاط بـدني، تتلاشى قوى الجسـم. ومثلهـا مَلَكـات النفس: فكـل المَلَكـات الروحيـة الـتي تُـترك دون تـدريب تضـيع. من تـرك الصلاة يفقد القدرة على الصلاة. من يرفض الصيام دائماً لا يجبر نفسه على الصـلاة. من لا يتبـع روحـه، يصـبح قلبه فاسداً روحياً غير ملتزم بشيء. إن النفس التي تُترك بدون تمرين تصـبح مثـل حقـل بغـير زراعـة لسـنوات عديدة، مليء بالحشائش الضارة والعشب الذي لا قيمة له والأشواك التي يصعب إثمارها. إن بطالة الروح وعدم

ممارسة الأعمال الصالحة يؤديان إلى موت النفس، إلى نمو النفس بين حشائش الخطيئة. مع كونِها بهذا السوء، إلا أن هذه ليست كل المشكلة.

إن سوء الحظ الأعظم هو أن نفقد أيام العمل الروحي، أيام حياتنا القصيرة. إن الله وهبنا إياها لتحقيق هدف عظيم ومقدس، والتحضير ليوم القيامة، والإجابة عند الدينونة، حتى نكون مستحقين في عيني الله فلا يضعنا عن يساره قائلاً لنا: "اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة للشيطان وملائكته" (متى ٤١:٢٥).

تُعطى لنا الحياة حتى نسرع، نستعجل القيام بعمل عظيم هو تطهير قلوبنا واتّباع الرب يسوع المسيح. لكن هذا الاتّباع هو عمل مضنٍ، عمل شاق في كثير من الأحيان، وليس بطالة. إنه احتمال المعاناة من أجل الرب يسوع المسيح، والبطالة لا تتألم بل تتجنّب المعاناة.

هل تعلمون أن جميع القديسين الذين، على ما يبدو، ليسوا بحاجة إلى عمل، الذين كرسوا حياتهم كلها للمآثر الروحية، قسّموا يومهم إلى ثلاثة أوقات: الصلاة، والجزء الآخر قراءة كلمة الله، والجزء الآخر الكدّ أو العمل. كانوا يعيشون في الصحراء، في الصحراء الليبية البرية، كما عاشوا في غابات أقصى الشمال، في برارٍ لا يمكن اختراقها، وكانوا يخصصون جزءاً من وقتهم للعمل. اختاروا أنواعاً مختلفة من الأعمال: نسج السلال والحصائر من الأشجار، زراعة حدائق الخضروات، قطع الأخشاب، بناء القلالي والكنائس والأديرة بأكملها. كان ما يصنعونه بأيديهم يُباع إلى أقرب مدينة، ويأكلون مما صنعوه لأنفسهم ويطعمون الفقراء. لقد اعتبروا العمل أمراً مهماً وضرورياً.

بشّر الرسول بولس بالله طوال النهار، وفي الليل كان يصنع الخيام. على ضوء القمر أو السراج كان يجتهد معتبراً العمل واجباً عليه. كان عمله الرئيسي وطموحه الأساسي هو الجري والإسراع قدر المستطاع نحو الهدف، أي بلوغ ملكوت الله.

هل تعرفون كلماته الرائعة: "أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ. وَلكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ، أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ." (فيلبي ١٣:٣-١٤).

هو، إذ لم يكن يعتبر نفسه على الإطلاق قد حقق ذلك، سعى إلى الأمام متناسياً ما تم تحقيقه بالفعل، لقد سعى إلى تحقيق هدف أعلى، إلى تلقي دعوة الإله السامية في المسيح يسوع.

هذا مثال على حياة معاكسة لحياة الأشخاص البطّالين. لن تجد أي أثر للكسل في حياة الرسول بولس، في حياة النساك الصوّامين، في حياة الرهبنة، في حياة القديسين العظام. لقد عملوا جميعاً من الصباح إلى المساء. كانت البطالة غريبة عنهم، واعتُبِرَ الكسلُ شراً عظيماً ومميتاً.

من الضروري، عند سماع صلاة القديس أفرام السرياني، التي تتكرر كثيراً، أن تستمعوا بعناية إلى كل كلمة من كلماتها، وأن تتذكروا وتتعمقوا في معنى هذه الكلمات وتطبعوها في قلوبكم إلى الأبد. سوف أساعدكم على الفوز بها. اليوم استحوذت على توسل القديس أفرام للخلاص من روح البطالة. تذكروا أن الحياة قصيرة، يجب أن تسرعوا كما أسرع الرسول بولس. يجب أن تسرعوا في عمل الرب. آمين.

عن الكآبة

ملاحظة: لا يذكر نصُّ الصلاة باللغتين اليونانية والعربية "الكآبة" بل "الفضول" (περιεργείας)، فيما في النص السلافوني الذي يعلّق عليه القديس لوقا ترِد "الكآبة" (уны́ния) بدلاً من "الفضول" (любонача́лия). ينتشر اليوم نص روسي يضيف "الكآبة" بين "البطالة" و"الفضول". على الرغم من الاختلاف عن النص المعروف عندنا، فقد تمت ترجمة هذا الجزء لأن معالجة القديس لموضوع الكآبة مفيدة جداً ومناسبة لكل المؤمنين [المترجم].

ما هو روح الكآبة؟ إنه ما يسمى أيضاً "بالإحباط". الناس الذين لا يفهمون المسيحية على الإطلاق، والذين لا يفهمون حياتنا الروحية ، يعتقدون أن الدين المسيحي بأكمله غارق في روح الكآبة. عند النظر إلى الرهبان وهم يتجولون في ثياب سوداء، عيونهم منكسرة وهم يديرون المسبحة بأصابعهم، يعتقدون أن الدين كله مملّ مثل الرهبان. ليس الأمر كذلك على الإطلاق. هذا مخالف للروح المعششة في المسيحية. على سبيل المثال، أخبروني: هل يمكن لشخص ذي روح كآبة أن يتمتع بالقوة الروحية والحيوية الروحية اللازمة لسلوك الطريق الضيق والمكافحة بلا كلل ضد الشياطين؟ بالطبع لا.

إن معتقدنا ليس دين كآبة، بل على العكس إنه دين بهجة وحيوية وقوة إرادة وقوة شخصية. ليست الكآبة هي ثمرة معتقدنا، بل شيء معاكس تماماً، كما يصف الرسول بولس: "ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ، فَرَحٌ، سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ، لُطْفٌ، صَلاَحٌ، إِيمَانٌ، وَدَاعَةٌ، تَعَفُّفٌ. ضِدَّ أَمْثَالِ هذِهِ لَيْسَ نَامُوسٌ."(غلاطية ٥:٢٢-٢٣).

هذا هو الروح الحقيقي، جوهر معتقدنا: ليس الكآبة على الإطلاق، بل البِرّ والفرح السلامي في الروح القدس. أيمكن أن يكون مَن يمتلك هذا الفرح كئيباً؟ بالطبع لا.

غالباً ما يرتكب الناس خطأ الحكم على مظهر الشخص. إن المسيحي الحقيقي لا يشبه الأشخاص الذين ينغمسون في أفراح الحياة. إنه مسالم دائماً، وغالباً ما يبدو عميق التفكير، يمشي ورأسه إلى أسفل، غارقاً في أفكاره. هل هذا يعني أنه كئيب أو محبَط؟ هذا يعني أن أفراح العالم التي يقدّرها الآخرون بعيدة كل البعد عن المسيحي وغريبة عنه، تماماً كما أن ألعاب الأطفال وتساليهم هي غريبة عن الكبار.

تتركز أفكار المسيحي على الأبدية، على ملكوت الله، متوجهة إلى الرب يسوع المسيح، لذلك فهو دائماً جادّ ومتأمّل. يحدث أحياناً أن يصاب المسيحيون باليأس، ويحدث تدهور في الروح. فهم، بعد أن يكونوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في طريق المسيح، طريق التخلي عن العالم، يعودون أحياناً بأفكارهم إلى طريقهم السابق؛ يبدو لهم أنهم ضلّوا طريقهم عبثاً، وأنه سيكون من الجيد اتباع المسار الواسع الذي يسلكه معظم الناس. فمِن ثمّ يقعون في اليأس.

هذه هي حال الأشخاص الذين تعرّفوا على أسرار المسيح العظيمة، وتركوا طريق تجارب العالم الواسع، واتّبعوا طريق المعاناة من أجل المسيح. يغويهم الشيطان وتوقفهم جحافل من الشياطين ويُمنَعون من السير على

طريق المسيح وتُقدَّم لهم صورٌ للحياة البهيجة التي تركوها، صورة عن السعادة العائلية، ونعيم الصداقة، ويُنَحَّون عن المسار العظيم لكي يعودوا إلى هذا الطريق.

غالباً ما تنجح الشياطين في تحقيق هدفها: يقع الإنسان في الكآبة، ويفقد عزمه، ويخسر غيرته للرب يسوع المسيح، وهذه الكآبة هي خطر كبير ينتظر كل مسيحي على طريقه إلى المسيح، إنها فتنة شيطانية. كل القديسين تعرّضوا لهذه الافتراءات من أرواح الظلام، وفي الغالبية العظمى من الحالات، بالصلاة والصوم والسهر، هزم المسيحيون روح الكآبة التي أطلقها الشيطان. ولكنْ كان هناك أيضاً من نَمَت روح الكآبة في نفوسهم وزادت، فتركوا طريق المسيح. وعندما تركوا هذه الطريق، شعروا أن الله تخلى عنهم وأصبح الفراغ وثقل الحياة لا يطاقان بالنسبة لهم، وغالباً ما أنهوا حياتهم بالانتحار.

لهذا السبب اعتبر جميع القديسين الكآبة خطراً عظيماً ومصيبة كبيرة، ووجهوا كل قواهم إلى الجهاد ضد روح الكآبة.

حتى القديسون يمكن أن يقعوا في الكآبة. لماذا وأين؟ ليس بعدُ من إبليسَ ولا من أرواح الظلام. تنشأ الكآبة عندما تتخلى عنهم نعمة الله مؤقتاً. حدث هذا لجميع القديسين. إنه اختبار ضروري لكل من يجاهد في التقوى. من الضروري ألا ينسب الشخص لنفسه، إلى نقاط قوته، إلى مزاياه، كل ما قد حققه. إنه يحتاج إلى تذكيرٍ بأنه لم يحقق ذلك بنفسه، بل فقط بنعمة الله.

عندما يبلغ الإنسان حياة روحية عالية، فإنه يتفكّر أحياناً بنفسه، وتتركه نعمة الله لفترة. ثم يقع في حالة ذهنية ثقيلة لا تطاق، ويصبح قلبه على الفور فارغاً. بدلاً من الدفء الذي يرسله الله تستقر البرودة في القلب. بدلاً من الضوء، يظهر ظلام لا يمكن اختراقه؛ بدلاً من الفرح، تأتي الكآبة العميقة. يسمح الرب بهذا لتذكير المجاهد بأنه يسير في طريق المسيح لا بقوته الخاصة بل بنعمة الله.

هذا هو أحد مصادر تثبيط العزيمة. ما هي المصادر الأخرى القائمة؟ لقد تحدثت إليكم عن البطالة، يجب أن تفهموا أن البطالة من أمهات **تثبيط** العزيمة. الناس البطّالون، الذين لا يعملون وهم آمنون تماماً، والغارقون في الرفاهية، الأشخاص الذين يشبعون من نِعَم الحياة، يفقدون طعمَ حياتهم، يشعرون بالملل من كل شيء، يصبح كل شيء غير ممتع، مملاً، لا يجدون الفرح في أي شيء، تمتلئ قلوبهم بالكآبة التي هي عدو خلاصنا الثقيل والخطير.

مصدر آخر للكآبة: هناك أشخاص يميلون إلى رؤية كل شيء في ضوء قاتم، ويطلَقُ عليهم اسم المتشائمين. إنهم يميلون إلى أن يكونوا في مثل هذا المزاج، لتركيز أفكارهم على ما هو مُظلِم، وما هو خاطئ. يطرحون السؤال: أين عدالة الله، وأين الحق، إذا كان الفقير التقي يتألم، وغير المؤمن الغني مباركٌ فيما هو يسير في دروب معوجة؟

إذا كان أحدهم يميل إلى أن لا يلاحظ في الحياة إلا ما هو مُظلمٌ وسيئٌ فقط، فإن الكآبة التي تسيطر عليه تنمو وتستفحل، لتصل إلى مرحلة لا يعود المرء فيها يرى أي شيء جيد، فينتحر. إن روح الكآبة قوية جداً. هذه هي المرة الثانية التي أصف فيها كيف يمكن أن تقود إلى الانتحار.

هناك مصدر آخر للكآبة وهو المصدر الأكثر شيوعاً. إنها الأحزان والحالات المؤسفة التي نمر بها في الحياة. قد يموت أحد الأحباء، أو طفل أو زوج أو أم. يقع الإنسان في اليأس. لا يعود العالم عزيزاً عليه، لا يفكر إلا في عزيزه الذي مات، ويجول هذا الإنسان المسكين بفكره بالقرب من القبر ، يتخيل محبوبه يرقد في نعش ويتحلل. يتعمَّق اليأس أكثر فأكثر.

ما هو علاج هذه الكآبة؟ لا حاجة لأن تجول حول القبر بأفكارك، وتتذكر الماضي ذارفاً الدموع. من الضروري السفر بعيداً بكل قوة الفكر إلى حيث ذهب العزيز المحبوب. اعلمْ أن روحه أمام الله والملائكة، مبتهجة بتحرّره. إذا لم تركز على الظلام، بل على النور، وليس على الفاني، بل على ما هو أبدي، فإن روح الكآبة ستزول.

الأمراض الجسدية الخطيرة تغرِق الإنسان في اليأس أحياناً. كثيرون يعانون من الأمراض من دون صبر. فيما كان هناك قديسون قد رقدوا طريحي الفراش طوال حياتهم بسبب المرض وكانوا يحمدون الله على ذلك. من الضروري أن نتذكر هؤلاء الناس وأن نكون قادرين على قبول الأمراض التي يرسلها الله. لا داعي لرفض مساعدة الطبيب، كما يقول ابن سيراخ الحكيم، أن الله خلق الطبيب لمساعدة الناس (ابن سيراخ ١:٣٨-١٢). الطبيب هو خادم الله الذي يستطيع أن يخفف المعاناة ويطرد روح اليأس.

هذه هي مصادر وأسباب الإحباط. الوسيلة الأساسية للتعامل معها هي الصلاة. هذا علاج اختبره جميع القديسين لقرون عديدة. لا توجد وسيلة أكثر فاعلية من الصلاة التي هي طلب دائم لمعونة الله.

عندما تدخل في محادثة مع الله، فإنه يريحك ويطرد روح الكآبة. عندما تأتي إلى هيكل الله حيث كل شيء بعيد جداً عن الضجة الدنيوية، استمع جيداً إلى الترانيم وستترك روحُك منطقة الكآبة المظلمة وتحلّق.

وإذا انتقلت إلى الوسائل القوية لمكافحة الكآبة، والتي أعطاها الرب يسوع المسيح، وإذا فتحت قلبك في الاعتراف أمام راعي الكنيسة، وإذا تناولت من ثمّ جسد المسيح ودمه، فسوف تشعر بالراحة والفرح وستطرد منك روح الكآبة.

لا تركز أفكارك على ما هو كئيب، ما هو خاطئ وما هو ثقيل، بل ارفع روح الحزن ، مثبتاً قلبك مع الله، في أروقة السماء، حيث لا تصلُ الأرواح المظلمة التي تجلب الكآبة.

هذا ما يحتاج كل مسيحي أن يعرفه عن الكآبة.

وما الذي يمكن قوله عن الذين بالكاد يعرفون المسيح، الذين يسلكون طريق العالم، ويطلبون الفرح والتعزية من العالم؟ غالبًا ما يبدون في المظهر راضين ومبتهجين وسعداء كما لو أنهم لا يشعرون بالكآبة. لا تعتقد أن الأمر هو على هذا النحو في الواقع، لا يغُرَّنَّك مظهرهم، بل ضعوا في اعتباركم تجنب هذا الطريق. يا ليتهم عرفوا فقط ما يجري في أعماق قلوبهم. لا يتوقف أبداً إنكار الضمير في أعماق نفوسهم. لا أحد يستطيع سماع الضمير. يرفع الإنسان الداخلي رأسه أحياناً ويبدأ بالصراخ. هذه هي المعاناة المستمرة للذين يسعون إلى الرخاء الدنيوي. يقول الرسول بولس: "لأَنَّ الْحُزْنَ الَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلاَصٍ بِلاَ نَدَامَةٍ، وَأَمَّا حُزْنُ الْعَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتًا" (٢ كورنثوس ٧:١٠).

إذا لم تتحول من حزن العالم إلى حزن الله، فسوف تموت. تذكر شدة الكآبة، تذكرْ أن قلب المسيحي يجب أن يمتلئ بالفرح بالروح القدس، فرح الجهاد للنور يجب أن يكون غريباً عن الحزن الذي يملأ قلوب الخطأة.

عن حبّ الرئاسة

ما هو روح حبّ الرئاسة؟ هو الرغبة في التفوق على الآخرين والسيطرة عليهم واحتلال المركز الأول. هذا الجهاد للتفوق دمّر رئيس الملائكة - رأس كل الملائكة - وجعله الشيطان، ما أخرجه من السماء. هذه الرغبة في السيطرة أهلكت قورح وداثان وأبيرام الذين حسدوا مجد موسى عندما قاد شعب إسرائيل عبر البرية إلى أرض كنعان؛ أرادوا الإطاحة به واغتصاب السلطة، فعاقبهم الرب بإعدام رهيب: انفتحت الأرض وابتلعتهم مع عائلاتهم جميعاً.

حبّ الرئاسة حرّك كل الهراطقة الذين رفعوا أنفسهم فوق كنيسة المسيح. لقد أرادوا أن يضعوا أنفسهم مكان القائم في الكنيسة، أو أرادوا أن يصبحوا قادة في الكنيسة. حبّ الرئاسة حرّك كل الناس الذين هزوا العالم بانتفاضاتهم الوطنية. لقد كان هناك كتّاب ذوو أفكار فاسدة أفسدوا أجيالاً كاملة.

أدان الرب يسوع المسيح حبّ الرئاسة - الشغف بالحكم - في عظته ضد الكتبة والفريسيين المنافقين. لقد أدان شغفهم بأن يكونوا الأوائل، ورغبتهم في أن يُقدَّموا في المجالس ليتلقوا التحيات التي تليق بقادة الشعب. لقد حكم عليهم الرب إذ قال لتلاميذه، ومن خلالهم لنا جميعاً: "من أراد أن يكون أولًا فليكن ... للكل خادماً" (مرقس ٣٥:٩). إن هذا يتناقض مع حبّ الرئاسة، إذ يأمر بأن لا يسعى الإنسان إلى منصب رفيع، بل إلى المصفّ الأخير، إلى أن يكون خادماً للجميع.

إنكم ترون كيف أن حبّ الرئاسة هو شغف بامتلاك التأثير، شغف باحتلال المركز الأول، وكيف أنه يتعارض مع روح الإنجيل وروح التواضع. إنه يتملّك الجميع، وما من أحد ينجو من الإصابة به - حتى الأطفال الصغار. نحن نعلم كيف يحدث ذلك عندما يلعب الأطفال: سيبرز طفل صغير، ويبدأ في القيادة، ثم يأمر الجميع، ويكون مستعداً أن يدخل في عِراك إذا جادل أحدهم أوليّته في القيادة.

حتى بين النسّاك، حتى في الأديار، حيث لا ينبغي أن يكون هناك تعسف، حيث يجب على الجميع أن يتذكّروا الوصية بأن يكونوا خادمين للكل، حتى هناك يتحكّم حبّ الرئاسة بالناس، وإن يكن ذلك بشكل خفي. أمام الناس، لا يسعون إلى الأوليّة، ولكن بالصيام المفرط والسهر يحاولون التفوق على الجميع.

في الحياة الدنيوية، يسيطر هذا الهوى على الجميع: الكلّ يسعى إلى أعلى منصب، ويتوق إلى التشجيع، ويريد الشرف. الكثير من الآباء يغرسون في أطفالهم الطموح والشغف بالتفوق، ويحاولون جعلهم يشغلون أعلى المناصب في الحياة، وبالتالي يفسدون أبناءهم.

أليس من الضروري أن نفهم أن أعلى منصب هو نصيب القلائل، وأنه لا يمكن للجميع أن يتفوقوا، ولا أن يحتلوا مكانة رفيعة. في الواقع، إنه نصيب الأشخاص الاستثنائيين الذين ميّزهم الله. الكثيرون يسعون لشَغل مثل هذا المنصب الاجتماعي، ولا يوفرون أي وسيلة لتحقيق هذا الهدف، ويستخدمون العلاقات، يتزلّفون،

يخدِمون، ويفعلون أي شيء لمجرد تحقيق هدفهم واحتلال مكانة عالية في المجتمع، ليصبحوا من بين الذين في السلطة.

غالباً ما يعاقبهم الرب: ينتهي شغفهم التعيس بالفشل، يصابون بالمرارة، ويرفضون العمل العام، فيلِجون دائرة الأسرة وينعزلون في الحياة الأسرية. لكن الكبرياء تعذبهم حتى هنا، ويعذبون عائلاتهم، ويعذبون جيرانهم، ولا سلام في أرواحهم.

هذه هي ثمار حبّ الرئاسة، لذلك، يطلب القديس أفرام من الله، في صلاته العظيمة، أن ينقذه من روح حبّ الرئاسة الفاسدة، المناقضة جداً للتواضع الذي بدونه يستحيل اتخاذ خطوة واحدة في الحياة المسيحية.

إذا كان الأمر كذلك، إذا لم يكن من الضروري السعي للحصول على أعلى مرتبة، والسعي إلى الأوليّة، فكيف يمكننا أن نقول إنه لا ينبغي لنا أن نسعى للارتقاء والسعي إلى أعلى كرامة، ولكن فقط الكرامة الأعلى غير الفانية والتي لا تُقدَّر بقيمة، تلك الكرامة العظيمة في عيني الله. إن الطريق إلى الكرامة قد كُشفَت لنا جميعاً، ما من شيء يضاهيها رفعة، ولا يمكن مقارنتها بإنجازات أرضية ولا شرف. إن الطريق إلى ملكوت الله قد كُشفَت لنا، ومعناها أنه يمكننا أن نكون أصدقاء الله، أبناء الله. إننا نبلغ هذا الهدف فقط بالسعي لتحقيق جميع وصايا المسيح. لا ينبغي أن يُحرجَنا أن نؤضَع في مكانة متدنية وغير ملحوظة في المجتمع، بل يجب أن نتذكر أن الرب يعرف كيف يقودنا إلى طريق واسع للغاية عندما لا ننتظر المجد الأرضي ولا نسعى جاهدين من أجله.

غالبًا ما يعطي الرب هذا المجد مضافاً إلى جهودنا وإرادتنا. يهرب المجد ممن يسعون إليه ويشتهونه، فيما يجد الذين يهربون منه. إن المجد الحقيقي، المجد الذي من الله، يُعطى للذين لا يسعون وراءه.

من الضروري، دون أن تفكّروا في التسلط على الناس، أن تتعمقوا في كيفية تنمية قدراتكم ومواهبكم التي منحكم إياها الله؛ أن تخوضوا بتواضع وهدوء في تطوير قدراتكم الذاتية في صمت وتجاهل للعالم. وقد يحدث أن يرفعكم الرب، كما حدث أكثر من مرة حين رفع أشخاصاً إلى أعالي المجد التي لا يمكن بلوغها.

نعرف العديد من الأمثلة من تاريخ العلم والفلسفة ومن حياة العلماء البارزين الذين قضوا حياتهم في الفقر، في جهل العالم، حتى أنهم تعرضوا للاضطهاد والنبذ، وكانوا على تناقض تام مع ما كان الناس المصابون بحبّ الرئاسة يبحثون عنه؛ في صمت، في فقر، في عزلة، انكبّوا على وظائف العلم والفلسفة وعملوا أفعالًا مجّدتهم في تاريخ البشرية، وجعلتهم نجوماً لامعة لتقدُّم البشرية.

تذكّروا أن الرب يعرف كيف يميّز الناس، ويميز الأعمال البشرية التي تتم بحسب وصية المسيح: "من أراد أن يكون أولاً فليكن الأخير، فليكن للكلّ خادماً". صلّوا مع أفرام السرياني للخلاص من رذيلة حبّ الرئاسة. وليعتقْكم الرب يسوع المسيح جميعكم من هذا الرذيلة. آمين.

عن الكلام البطّال

يصلّي القديس أفرام من أجل ما يقوله النبي داود في المزمور: "اجعل يا رب حارساً لفمي وباباً حصيناً على شفتيّ"(مزمور ١٤٠:٣). والرب يسوع المسيح نفسه قال إنه مقابل كل كلمة بطالة سنعطي جواباً في يوم القيامة (متى ١٢:٣٦). فكروا في مدى جدية الأمر ومدى صعوبة ذلك: إعطاء جواب عن كل كلمة بطالة.

لكن أخبروني، هل هناك أي شيء آخر يمكن التعامل معه بسهولة أكثر من الكلمات؟ إنه لأمر مدهش كيف لا يفهم الناس الأهمية الهائلة الجسيمة للكلمات البشرية. إن قدرتنا على الكلام تجعلنا مشابهين لله نفسه إلى حدٍّ كبير. خلق الله العالمَ كلَّه بكلمة (تكوين ١:١)، إذ لكلمته قوة عظيمة جبّارة. أنتم تعلمون أن النبي إيليا أقام الموتى بكلمة (ملوك الأول ١٧:٢١-٢٢)، وبكلمته أوقف المطر وأغلق السماء وأحدث مجاعة (ملوك الأول ١٧:١)، ثم أحدر المطر إلى الأرض (ملوك الأول ١٨:٤٢-٤٥).

ما هي قوة الكلمة؟ لا تظنّوا أن كلمة فالتة من الفم تتبعثر في الهواء ولا يبقى من الكلمة شيء. هذا ليس صحيحاً. تعيش الكلمة، تعيش لقرون، لآلاف السنين. الكلمات التي قالها أنبياء الله العظماء، الذين عاشوا قبل عدة قرون من ميلاد المسيح، لا تزال حية. كلمات موسى العظيمة، الكلمات البليغة التي قالها الرسل القديسون، تلك الكلمات التي خرجت من شفاه نسّاك الله، تعاليم كنيسة الله، لا تزال حية لآلاف السنين.

وإذا استمرت الكلمة حيّة لآلاف السنين، فإنها شيء مهم لأبعد حد . إن الكلمات الصادرة من أفواهنا تُحدِثُ دائماً تأثيراً عميقاً جداً على الأشخاص من حولنا، حتى على البعيدين عنا. كل كلمة حكيمة تعيش في قلوب الناس وتؤتي ثمارها لسنوات عديدة. وكل كلمة شريرة - افتراء، أكاذيب، ثرثرة - تعيش أيضاً لفترة طويلة جداً، ولسنوات عديدة، تنغرس في عقول وفي قلوب القريبين والبعيدين، وتوجّه أفكارهم ورغباتهم. إنهم، بسماع أقوالنا الشريرة، إنما يتسممون بهافيحذون حذوَنا مُطلقين نفس الكلمات الشريرة السامة.

إن كلمات القديسين الحميدة والحكيمة تخلق الحقيقة في العالم وتصنع الخير الأبدي، بينما الكلمات الشريرة والخاطئة تجلب العار والكراهية وتسبب ضرراً كبيراً للناس من حولها، حتى للبشرية جمعاء.

إن الكلمات تحيا، تتدفق مثل موجات الراديو التي تندفع عبر الفضاء وتغمر قلوب الناس وعقولهم. الكلمات هي قوة هائلة تربط بين الناس أو تفرّقهم. إنهم يتّحدون عندما تكون الكلمة حاملة للحق، ويفترقون عندما تكون مشحونة بالافتراء والحقد تجاه الناس. إذا حُرِم الناس من الكلام، يصيرون كالحيوانات وتضطرب الحياة البشرية.

هذا هو مدى عِظَمِ وعمق معنى الكلمة البشرية. لهذا يصلي القديس أفرام من أجل الانعتاق من الكلام البطّال، ومن الكلام الفارغ. جميعكم قد التقيتم بالكثير من الأشخاص في حياتكم، وخاصة نساء، من الذين يثرثرون ويتكلّمون ويهذرون بلا توقف، وباندفاع لا يقاوم، وفي نفس الوقت لا يعرفون أن لغتهم مُرهِقة: إنها تطحن وتطحن وتطحن. كل ما يقولونه فارغ ولا يحتاجه أحد. يصلي أفرام السرياني إلى الله لينقذنا من الكلام البطّال. كان خائفاً من السقوط لئلا يدمره لسانه، فيما هؤلاء المتكلمون التعساء لا يخافون شيئاً.

أنتم تعلمون أن الناس بالغالب يتحمّلون هذا الكلام الفارغ – إذ هم يثرثرون والناس يسمحون لهم بالتحدث إلى أنفسهم، فيجعلون الأمر يبدو وكأنهم يستمعون إليهم بسرور، بينما هم يعرفون في أعماق قلوبهم أن الكل سئم منهم ويكرههم. عظيم جداً هو شرّ الكلام البطّال، الشر الذي تسببه ثرثرتهم.

إذا كان اللسان يتكلم بالباطل، فإن الأفكار تجولُ ولا تركز على أي شيء عميق حقيقي مهم. إنها تطوف بلا هدف في كل مكان كما يتجول كلب هجين منبوذ هازّاً ذيله. إن أفكارهم ومشاعرهم، وكذلك اتجاه رغباتهم ونشاطهم – جميعها فارغة وغير مهمة. تتضور النفس جوعاً، يثير الإنسان اشمئزاز الآخرين، ويلحق بنفسه ضرراً جسيماً. هذا هو معنى الكلام البطّال.

إن الحكماء الذين يعيشون حياة روحية لا يتكلمون كلاماً باطلاً ابداً، فهم دائمًا صامتون مركِّزون. في اليونان القديمة، كان الفلاسفة والحكماء يحظون بتقدير كبير. لم يكن الفلاسفة يقبلون أي شخص كتلميذ لهم قبل أن يثبِت أنه يعرف كيف يصمت. هل ينجح أي من المتكلمين البطّالين الآن في اختبار الصمت؟ بالطبع لا.

إذا كانت رذيلة الكلام البطّال ثقيلة جداً، فكيف نتخلّص منها؟ ماذا نفعل بلساننا الذي لا يمكن لجمه؟ عليكم أن تفعلوا ما فعله أفرام السرياني: أنتم بحاجة للصلاة إلى الله من أجل الانعتاق من هذه الرذيلة، وسيمنحكم الرب يسوع المسيح ما تطلبونه. من الضروري تجنب التواصل مع الأشخاص الذين يتحدثون باطلاً، والابتعاد عنهم، والبحث عن صحبةِ قليل من الحكماء الذين يفتحون أفواههم ليقولوا شيئاً مفيداً، والذين لن تسمعوا منهم كلمات باطلة أو ضارة بالنفس.

راقبوا أنفسكم بعناية شديدة، واكتسبوا عادة الانتباه إلى ما تقولونه، وما يفعله لسانكم، وتعوَّدوا على إبقاء لسانكم تحت السيطرة. لا تدعوه يتحدّث باطلاً. تذكروا في المساء ما قاله في النهار، هل ثرثر، هل أساء إلى أحد، هل كذب، هل خادع. إذا تعلمتم هذه العادة، فسوف تعتادون على الانتباه إلى اللسان، ومراقبة كل حركة وإيقافها.

تذكروا، بقدر ما يركّز الشخص على ما هو ضروري، في الداخل، على ما هو حقيقي، يزداد الوقت الذي يعتمد فيه على قراءة الأناجيل والكتاب المقدس وأعمال الآباء القديسين. وبقدر ما يزداد تشبعاً من حكمتهم وحيويتهم يفقد الرغبة في الكلام البطّال. إن اكتساب السلطة على اللسان شيء عظيم.

يقول الرسول يعقوب في رسالته الجامعة: " إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَعْثُرُ فِي الْكَلاَمِ فَذَاكَ رَجُلٌ كَامِلٌ، قَادِرٌ أَنْ يُلْجِمَ كُلَّ الْجَسَدِ أَيْضاً" (يعقوب ٣:٢). هل تفهمون ما معنى أن تلجم الجسد كله؟ هذا يعني إخضاع الجسد لأسمى أهداف الحياة الروحية، وكبح كل الشهوات والأهواء وكل الأشياء السيئة التي يجتذبها الجسد. ابدؤوا بكبح اللسان، وإذا وصلتم إلى هذا الهدف، تبلغون الكمال وتكبحون جسدكم كله. وإذا لجمتم جسدكم كله، تكونون طاهرين وصالحين أمام الله. فليمنحكم الرب كل هذه الطهارة والصلاح، ولتذكِّركم صلاة أفرام السرياني بذلك. آمين.

عن العفة

هل انتبهتم إلى حقيقة أنَّه حتى هذا الناسك العظيم والسَّاكن في الصحراء، القديس العظيم أفرام السرياني، صلّى أن يعطيه الرب روح العفة. هل كان الشيخ القديس بحاجة فعلاً إلى هذه الصلاة؟ ليس علينا أن نحكم، لكنه هو نفسه رأى أنه من الضروري أن نصلي من أجل هذا، كما قد صلى جميع القديسين.

لماذا صلوا من أجل هذا؟ لأنهم علموا أن الرب يطلب منهم، كما من جميع المسيحيين، عفة كاملة غير مشروطة، عفة ليس فقط بالجسد، بل بالروح أيضاً. حتى في أفكارنا، لا نتطاول ولا نتعدى على العفة، لأن الرب نفسه قال: "من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (متى ٥:٢٨). لا أحد يستطيع أن يتجنب الأفكار النجسة ، وقد جاهد القديسون بألم مع هذه الأفكار لسنوات عديدة.

لقد سبق أن أخبرتكم عن كيف حارب الراهب الشاب مارتينيانوس بشدة ضد هذا الهوى، وكيف أنه عندما أغوته امرأة فاسدة تمكنت من الدخول إلى قلايته الرهبانية، وقف على الجمر المحترق للتغلب على هوى الجسد في ذاته.

بهذه الطريقة جاهد القديسون لعقود، وكانت الوسيلة الرئيسية في جهادهم الصوم والتواضع والصلاة، لأن جميع الآباء القديسين يقولون إنه لا حماية من الشهوات الجسدية أعظم من التواضع.

عندما يكتسب الإنسان التواضع، يتحرر من الشهوات، أما الأشخاص المتفاخرون، الغريبون عن التواضع، فيغرقون كلياً في هذا الهوى الرذيل. تذكروا هذا: التواضع هو الطريقة الأولى والأكثر أهمية لتحررنا من الشهوة.

هل تعلمون كم واحداً من بيننا يرتبطون بسهولة، لا بل بسهولة بالغة، بانتهاك الوصية السابعة؟ كم عدد المسيحيين الذين لا يعتبرون ذلك الخطيئة خطيرةً ويقولون: "بالنهاية، أنا تقي، أبذل قصارى جهدي لتحقيق وصايا المسيح، أحاول القيام بأعمال الرحمة، أفَلَنْ يغفر الرب هذا الضعف الصغير؟"

إن الذين يتكلمون هكذا مخطئون بشدة، لأن ما يُسمُّونه ضعفاً صغيراً، يدعوهُ الرسول بولس بطريقة مختلفة تماماً. إنه شديد الصرامة في هذا الصدد، لدرجة أنه يقول في الرسالة إلى أهل أفسس: " أَمَّا الزِّنَا وَكُلُّ نَجَاسَةٍ أَوْ طَمَعٍ فَلاَ يُسَمَّ بَيْنَكُمْ كَمَا يَلِيقُ بِقِدِّيسِينَ" (أفسس ٥:٣).

لا يمكنكم حتى التفكير فيها، ولا يمكنكم حتى التحدث عنها، كما يليق بالقديسين. يقول إن الزناة والفسّاق والسكارى لن يدخلوا ملكوت الله. يقول الرسول مباشرة إن الذين يخالفون هذه الوصية - الزناة والفسّاق- لن يدخلوا ملكوت الله (١كورنثوس ٦:٩).

وأين سيكونون؟ بالطبع في مكان مظلم، في مكان عذاب أبدي. فكّروا في الأمر. لا يقول أي منكم إن الطبيعة نفسها مرتبة بحيث يكون هذا الهوى طبيعياً. هذا خاطئ تماماً، فالطبيعة البشرية مصممة بحيث يلد الناس أطفالًا، ولا يدنسون أنفسهم. لأن الرسول بولس يقول إن كل خطيئة تقع خارج الجسد: الكبرياء، والغرور، والطموح، والحسد، والغضب، لأن هذه كلها أهواء للنفس، لكن العهر والزنا ففي الجسد نفسه، أي لا تدنّس الروح وحسب، بل جسدنا أيضاً.

ألم يقل الرسول بولس أن أجسادنا هي هيكل الروح القدس، وإذا كان يجب أن يكون الهيكل طاهراً، فيجب أن تكون أجسادنا طاهرة لا تتنجس بأي شيء. لا يجب أن ندمر هيكل الروح القدس، ولا أن نجعل أعضاء أجسادنا أعضاء زانية. يقول الرسول برعب: "حَاشَا!" (١ كورنثوس ٦:١٥).

كم من الناس هم مَن يحولون الشغف الجسدي إلى متعة دائمة، هي الأكثر نجاسة والأخسّ لذة، مما يجعلهم مساوين لتلك الحيوانات التي تتميز بشهوة خاصة: الديوك والبابون.

إنه لأمر مخزٍ، للإنسان بشكل عام، والأكثر من ذلك للمسيحي، أن يساوي نفسه بالبابون. إنه لعارٌ، عارٌ أن ينسى أن جسده هيكل للروح القدس. لأن الرسول بولس يقول في رسالته: " لأَنَّ هذِهِ هِيَ إِرَادَةُ اللهِ: قَدَاسَتُكُمْ. أَنْ تَمْتَنِعُوا عَنِ الزِّنَا، أَنْ يَعْرِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَقْتَنِيَ إِنَاءَهُ بِقَدَاسَةٍ وَكَرَامَةٍ، لاَ فِي هَوَى شَهْوَةٍ كَالأُمَمِ الَّذِينَ لاَ يَعْرِفُونَ اللهَ. لأَنَّ اللهَ لَمْ يَدْعُنَا لِلنَّجَاسَةِ بَلْ فِي الْقَدَاسَةِ"(١ تسالونيكي ٤: ٣-٥ و ٧).

يقول الرسول الإلهي: "وَلكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ مَعَ الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ." (غلاطية ٥:٢٤).

هل تريدون أن تكونوا للمسيح، هل تريدون أن تكونوا أصدقاء المسيح، أبناء الله؟ إذا كنتم تريدون هذا، فتذكروا: يجب أن تصلبوا أجسادكم بأهوائها وشهواتها ، تميتوها. أنتم بحاجة إلى جهاد يومي هائل مع جسدكم.

يُعطى هذا الجهاد بشكل مختلف لأناس مختلفين، فهناك أناس مبارَكون بلا شهوانية كبيرة، وهناك آخرون بطبيعتهم كما ورثوها عن آبائهم يعانون من شهوانية وشبق عاليين بشكل غير عادي.

أعرف شخصاً بائساً هكذا: امرأة تعيسة، تقية للغاية، لكنها قد ورثت شهوة استثنائية من والديها. أعرف كيف تجاهد مع هذه الشهوة. إنها تحارب بكل قوتها وتعذب نفسها بنفسها: تجمع الأشواك، الأشواك الوخّازة، وتسحقها بيديها حتى تنغرس الأشواك في يديها. إنها تتألم لكنها تعود فتسقط. لكن هؤلاء التعساء ليسوا الوحيدين الذين يسقطون، هناك أيضاً العديد منا، أي من القادرين على الامتناع بسهولة أكبر.

ماذا يمكننا أن نقول عن مثل هذا السقوط؟ فلنقُل إنه، كما كل سقوط آخر، يمكنُ وينبغي أن ننهض منه. غالباً ما نسقط، نسقط في عدة جوانب، وإذا سقطنا في هذا الجانب، فعلينا أن نصعد من تلك الهاوية، من ذلك الغور الذي سقطنا فيه، ونصعد بكل قوتنا طالبين معونة الروح القدس كإنسان سقط في الهاوية ليخرج منها.

وماذا يفعل الناس الذين يسقطون في الهاوية؟ إنهم يخرجون منها بكل قوتهم، لا يوفّرون أيديهم لئلا تتلطخ بالدماء وتخدشها الحجارة الحادة، أو تُقتَلع أظافرهم، أو تتجرح أرجلهم، إنهم يحاولون بكل قوتهم الخروج.

لذلك على الذين وقعوا في خطيئة مخالفة الوصية السابعة أن يخرجوا من هاوية السقوط، طالبين المعونة من الذي أعطى وصية العفة، عليهم أن يصلوا ويصلوا بحرارة. يجب أن نتذكر، وباستمرارٍ، ما يقوله الرسول: "لاَ تَسْكَرُوا بِالْخَمْرِ الَّذِي فِيهِ الْخَلاَعَةُ" (أفسس٥:١٨).

هناك خلاعة في الخمر، إذ لا شيء يثير شهوتنا مثل السكر: بشرب الخمر يصبح الإنسان لعبة في يدي شيطان سفيه. إن شخصاً يفرط بالأكل، عاطل دائماً لا يريد العمل، يحيا في حالةٍ من الفوضى منشغلاً فقط بالترفيه

والرقص والذهاب إلى المسارح والسينما، ينام مثل المدللات حتى الساعة ١١ صباحاً، إن شخصاً كهذا سيكون زانياً بشكل حتمي وأكيد، لأنه يفعل كل شيء من شأنه أن يجعل شهوة الجسد تقيده في أصفادها.

وإذا كان الإنسان منشغلاً بعمل مستمر، جسدي أو عقلي، ولم يكن عنده وقت لتشتيت انتباهه عن هذا العمل، وبعد أن ينهي عمله في المساء سيسعى للراحة فقط، فإنه سريعاً سيكتفي بالضروري من الطعام ويخلد إلى النوم؛ إنه لا يحتاج لشيء أكثر من الراحة، وليس لديه وقت للشهوة ولا للشبق.

لذلك فإن التواضع والصوم والعمل الجاد والصوم المستمر والصلاة المستمرة هي الوسائل التي يمكننا بواسطتها تحرير أنفسنا من قوة الشيطان السفيه. وكم هم كثرٌ بشكلٍ لا محدودٍ أولئك الأشخاص البائسون، وخاصة بين الشباب، الذين يقرؤون الروايات والقصص العاطفية باهتمام كبير ونَهَم، وهي تصف الصور القذرة للفساد والشهوة. يا له من سم! إذا كان الإنسان يستمتع برواية أو قصة قذرة، فإنه يؤجج شهوته.

علينا أن نسلك بشكل مختلف: ليس فقط في عدم تأجيج الشهوة بالكتابات والصور الإباحية، بل علينا أن نجتهد في تبديد الشهوة، وبمجرد أن نلاحظ أن مثل هذه الصور تظهر في أفكارنا، نلتقطها ونحاول الإمساك بالثعبان من عنقه، بالقرب من رأسه، ونضرب رأسه، لأننا إذا لم نفعل ذلك، فإن الحية تزحف إلى قلبكم بشكل غير محسوس وتسممكم بالزنا والصور المغرية غير النقية التي يغرسها الثعبان القديم في قلبكم، وستنتقلون بسهولة وبسرعة إلى الإعجاب بهذه الأفكار، وبالإعجاب بها تنتقلون إلى الفعل نفسه.

يجب أن نتذكر ما سمعناه مؤخرًا في المزمور ١٣٦: "طُوبَى لِمَنْ يُمْسِكُ أَطْفَالَكِ وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ!" (مزمور ٩:١٣٧) ، عليكم أن تمسكوا هؤلاء الأطفال البابليين من أرجلهم وتسحقوا رؤوسهم على صخرةٍ وهُم أطفالٌ بعدُ قبل أن ينضجوا، وقبل أن يستحوذوا على قلبكم.

هذه هي المهمة التي تنتظركم: مهمة العفة الكاملة، عفة الجسد كما عفة الروح أيضاً. ولكن، كما قلت، كثيرون يستخفّون بخطيئة الزنا ولا يعتبرونها جدية، ومهمتنا هي أن نوقفكم ونجعلكم تعيدون التفكير.

ما الذي يمكن أن يساعدكم في هذا؟ إن الذين يصلِحون أنفسهم وينالون مغفرة هذه الخطيئة بالاعتراف يُقبَلون للاشتراك في الكأس المقدسة. وإذا خضع أي منكم لمثل هذا الحرم الكنسي لفترة من الوقت فلا يتشكى ولا يغضب. يجب أن نفكر بعمق ونقول لأنفسنا: "إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الوضع خطير؛ ما بدا لي خطيئة صغيرة، تسبب بأن تحرمني الكنيسة المقدسة من المناولة". لا تنزعجوا، لا تظنوا أنكم قد تموتون دون تناول الأسرار المقدسة. ترفع كل الحروم من المناولة في حال وجود خطر مميت.

الآن تفهمون لماذا يصلي أفرام السرياني إلى الله ليعطيه روح العفة. نرجو أن نصلي نحن جميع الخطأة المذنبين بهذه الخطيئة إلى الله من أجل الخلاص ونلجأ إلى القديس أفرام السرياني للمساعدة: "ساعدنا في هذا الجهاد: نحن ضعفاء، أما أنت فقوي!" آمين.

عن اتضاع الفكر

تذكروا أن وصية التواضع هي أولى التطويبات، وإذا كانت الأولى فهي الأهم. هل سبق أن سمعتم كلمة الله التي نادى بها النبي إشعياء: " لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ، سَاكِنُ الأَبَدِ، الْقُدُّوسُ اسْمُهُ: «فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ، وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ، لأُحْيِيَ رُوحَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَلأُحْيِيَ قَلْبَ الْمُنْسَحِقِينَ»" (أشعياء ٥٧:١٥).

ألا تريدون أن يعيش الله نفسه في داخلكم؟ إذا كان الأمر كذلك، فتذكروا جيداً: هو نفسه يقول إنه يعيش في قلوب المتواضعين ويحيي قلوبهم، وكم نحن بحاجة إلى إحياء قلوبنا!

ألا تريدون أن ينظر الله إليكم؟ إذا كان الأمر كذلك، فاعلموا وتذكروا أن الله يشرف على متواضع القلب. تذكروا أيضاً كلمات الرسول يعقوب: " يقَاوِمُ اللهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً" (يعقوب ٤:٦). أتريدون أن يقاومكم الرب، ألا تريدون أن تنالوا النعمة؟ إذا كان الأمر كذلك، فتذكروا ما هو التواضع، يا له من فضيلة مقدسة ترضي الله كثيراً، ومن أجلها يعيش الله فينا ويشرف علينا.

التواضع عكس الكبرياء. المتواضعون هم فقراء بالروح، يتذكرون عيوبهم، ويوجهون نظرهم إلى أعماق قلوبهم، وهم دائماً يراقبون بلا كلل حركات قلوبهم، ويتبعون أي نجاسة يرونها فيها. القديسون، الذين حفظوا دوماً وصايا المسيح، أحبوا المسيح، وكان الرب دائماً في أذهانهم، كانوا يتذكرون التواضع بشكل ثابت ويطلبونه دائماً في صلاتهم.

يقول المسيح: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (متى ١١:٢٩). إن الرب يوصي بتعلّم التواضع منه، ويأمر بالاقتداء به في التواضع. ظهر التواضع طيلة حياة الرب على الأرض. لقد بدأ منذ ولادته، إذ وُلِد كأكثر الأشخاص تواضعاً وبساطة، وأكثرهم تواريا، وُلِد في مغارة للماشية وأُضجِعَ في مذود.

ومن ثمّ طوال حياته، ألم يقدم أمثلة لا حصر لها عن التواضع؟ عندما اشتعل هيرودس غضباً وأراد قتل المخلّص الوليد، أرسل جنوده ليذبحوا أطفال بيت لحم، ألم يكن الرب قادراً أن يرسل طغمة واحدة من الملائكة من بين الطغمات التي هي دائماً تحت تصرفه، ألم يكن قادراً أن يضرب هيرودس؟ بالطبع كان يستطيع، لكنه فضّل أن يظهِر التواضع ويهرب إلى مصر من غضب هيرودس.

ثم يا للتواضع الذي أظهره في حياته، سائراً مسافة مئتي كيلومتر على الأقدام إلى أورشليم، في أول نداء من الذين كانوا بحاجة لمساعدته، دون أن يكون له مكان يسند فيه رأسه. ألم يرسم مثالاً كاملاً واستثنائياً للتواضع بغسل أرجل تلاميذه؟ هذا يمثل نموذجاً للتواضع.

وماذا عن التواضع الذي أظهره أمام المحكمة وبعد المحكمة، عندما اقتيد إلى الجلجثة ورُفِع على الصليب؟ إن شفاه الإنسان لا تجرؤ على التحدث عنه إذ إنه متعذر القياس، وعظيم جداً.

يقول لنا الرب أن نتعلّم التواضع منه. لكنْ مَن يتذكّر التواضع الآن؟ التواضع صفة من صفات النفس البشرية، يصِمها المتكبرون بالازدراء، لأن هؤلاء الناس لا يؤمنون بالمسيح، ولم يختاروا طريق المسيح، بل طرقاً أخرى:

يقولون إن هذا هو روح العبودية، أي أن المتواضعين هم عبيد، محرومون من خاصية ما هو أكثر ضرورة، فاقدون لروح الاحتجاج والمقاومة بالقوة لمصائب البشر الجسيمة.

هل هناك أي حقيقة في هذا؟ لا، ولا أي أثر للحقيقة. ما ينبغي قوله عن المتواضعين ليس ما يقوله النمامون، بل ما هو مختلف تماماً: المتواضعون ليسوا عبيداً، وليسوا خاضعين للشر والعنف، بل هم وحدهم غزاة الشر والعنف. يجب أن يقال إنهم هم وحدهم مَن يخوضون معركة حقيقية ضد الشر، لأنهم يقضون على مصادر الشر ذاتها في قلوبهم وقلوب الآخرين. إنهم لا يعتقدون أن سبب الشر يكمن في النقص في العلاقات الاجتماعية وحسب. المتواضع هو محارب حقيقي للمسيح وليس عبداً.

ولكنْ ما أقل التواضع، إنه قليل جداً الآن! إن الغالبية العظمى من الناس يحتقرون التواضع، ويسعون إلى الأسبقية والهيمنة في هذا العالم. يكاد يكون من المستحيل العثور على أناس متواضعين حقاً، فالناس لا يفكرون في التواضع؛ التواضع منسي، منسيٌّ تماماً. إن الذين يسيرون بكل قلوبهم على طريق المسيح، والذين يتعلّمون منه التواضع، يفكّرون في التواضع. وحدهم القديسون متواضعون حقاً. قد يبدو غريباً كيف يمكن للقديسين، الذين يتفوقون إلى حد كبير على غيرهم بالفضائل الأخلاقية في الذروة التي وصلوا إليها، أن يعتبروا أنفسهم بصدق أقل من الآخرين. إن أساس قداستهم هو أنهم لا يُعلّون أنفسهم على أحد، بل يدينون قلوبهم. إن القديسين يراقبون بيقظة مفرطة كل حركة في القلب ويرون أدنى شائبة فيه، وإذا رأوها، فإنهم يتذكرون دائماً هذه النجاسة، وبالتالي يعتبرون أنفسهم غير مستحقين أمام الله.

إن الأشخاص الفخورين المتجاسرين يجرؤون على الحكم على كل ما هو فائق السمو والقداسة؛ المتواضعون خالون من الوقاحة، خفِرون وهادئون. نجد العديد من الأمثلة في الكتاب المقدس وفي سِيَر القديسين.

مَن أعظمُ أمام الله من إبراهيم الصديق الذي سمع الوعود العظيمة ودُعي صديق الله، فهذا العظيم لم يتوقف عن تسمية نفسه بالتراب والرماد. مَن أعظمُ أمام الله من داود النبي والملك، الذي قال عن نفسه: "أنا دودة ولست إنساناً. عار بين الناس" (مز مور ٧:٢١). كلماته هذه كانت تمام الصدق. مَن كانَ أعظم أمام الله في أعماله من بولس الرسول؟ وهو يسمي نفسه الأول بين الخطأة، وقد كان ينفر بقوة من الوقاحة والتمجيد: فهو كان خجولاً، غير متطاول، وصفَ نفسه بأنه كان بين أهل كورنثوس " فِي ضَعْفٍ، وَخَوْفٍ، وَرِعْدَةٍ كَثِيرَةٍ" (١ كورنثوس ٣:٢). هذا التواضع العميق هو مثال لنا جميعاً، فيما نحن بعيدون عنه بشكل لامتناهٍ.

إننا بحاجة دائماً إلى التفكير جدّياً بالتواضع وأن نطلبه من الله. لا يمكننا اقتناء هذه الفضيلة بأيٍ من جهودنا. التواضع، عطية عظيمة من الله، ينالها الذين يحبون الله من كل قلوبهم ويسعون لإتمام وصايا المسيح. لهم فقط يعطي الرب هذه الهدية العظيمة. إن قلبهم متواضع، وعندما يكون قلب الإنسان متواضعاً يسكن فيه الروح القدس.

انظروا أي سعادة عظيمة هي في أن تكونوا متواضعين، وانظروا مدى صعوبة أن تكونوا متواضعين. تحلّوا بالرَّجاء واعلموا أن كل خطوة على طريق المسيح تقرّبكم من التواضع المقدس. إذا تكررت مثل هذه الخطوات،

مثل الرسل والقديسين، فسوف تقتربون من الله. قال السيد المسيح للتلاميذ: " أَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِمًا لَكُمْ. فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ، وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ" (متى٢٣:١١-١٢).

كم وكم من المرات الكثيرة تتحقق كلمات المسيح هذه، كم من المتكبرين الذين يتوقون للتعالي فوق الجميع، يعودون فيسقطون تحت الجميع. كم من المتواضعين، التافهين، المولودين في أسرة متسولة، والذين عاشوا في فقر في بداية حياتهم، أصبحوا لاحقاً أشخاصاً عظماء. هذه هي قصة قديسي موسكو العظماء.

وكثيرون آخرون جاؤوا أيضاً من أدنى خلفية اجتماعية وقد مجّدهم الله لتواضعهم الكبير الذي لا يقاس. يقول الرب: "كثير من الأولين سيكونون أخيرين والآخرون أولين" (متى ١٩:٣٠). هكذا يحدث في حياتنا، وهكذا سيكون الأمر في يوم القيامة. الأول سيكون الأخير، والأخير، التافه، المحتقَر سيكون الأول. هناك حاجة إلى الكثير من العمل حتى لا ننسى التواضع، الكثير الكثير من العمل لاقتنائه.

يجب أن نتذكر كلمات الرسول بطرس: " كُونُوا جَمِيعًا خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، وَتَسَرْبَلُوا بِالتَّوَاضُعِ، لأَنَّ: «اللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً»" (١ بطرس ٥:٥). تذكّروا أن الله يقاوم المتكبرين ويعطي نعمة للمتواضعين فقط. تذكروا أنه حتى قبل موت الصليب، أذلّ الرب يسوع المسيح نفسه. نحن بحاجة إلى أن نجتهد من أجل التواضع، وأن نسأل الله باستمرار: "أيها الرب وسيد حياتي، أنعِمْ على عبدك بروح التواضع!" اعلموا وتذكروا أن مَن يحفظ هذه الكلمات المقدسة في فكره باستمرار، ينال من الله فضيلة التواضع العميقة. آمين.

عن الصبر

آه ، كيف يجب أن نطلب روح الصبر هذه! آه، كيف يجب أن نكتسب الصبر! بالنهاية، الرب نفسه قال: "بصبركم تقتنون نفوسكم" (لوقا ٢١:١٩).

بالصبر خلاص نفوسنا. لمَ الأمر كذلك؟ لأن السيد المسيح قال: " مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ" (متى٧:١٤). هذا الطريق صعب ومرهق وقد أخبرنا الرب، كما يخبرنا الرسل، أن هذا الطريق - طريق الحياة المسيحية - هو طريق المعاناة وطريق الأحزان. "في العالم يكون لكم ضيق ولكن لا تخافوا لأني قد غلبت العالم" (يوحنا ١٦:٣٣).

إذا كان الأمر هكذا، وإذا كان الطريق المسيحي هو طريق المعاناة والأحزان، فإن خلاص العالم يكون بالصبر فقط. لا يمكننا تخليص نفوسنا إلا بالصبر. يقول الرسول يعقوب في رسالته الجامعة: " يا إخوتي، اِحْسِبُوهُ كُلَّ فَرَحٍ يَا إِخْوَتِي حِينَمَا تَقَعُونَ فِي تَجَارِبَ مُتَنَوِّعَةٍ، عَالِمِينَ أَنَّ امْتِحَانَ إِيمَانِكُمْ يُنْشِئُ صَبْرًا. وَأَمَّا الصَّبْرُ فَلْيَكُنْ لَهُ عَمَلٌ تَامٌّ، لِكَيْ تَكُونُوا تَامِّينَ وَكَامِلِينَ غَيْرَ نَاقِصِينَ فِي شَيْءٍ" (يعقوب١:٢-٤).

كما ترون، للصبر تأثير مثالي، وهو يجعلنا كاملين في مجمله دون أي عيوب. يقول الرسول بولس: " لأَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الصَّبْرِ، حَتَّى إِذَا صَنَعْتُمْ مَشِيئَةَ اللهِ تَنَالُونَ الْمَوْعِدَ" (عبرانيين١٠:٣٦)، الحياة الأبدية، ملكوت الله.

تحلّوا بالصبر: بدون الصبر لا يمكن أن تخلصوا. هذا الرسول، كمثل جميع الرسل الآخرين، تحمّل العديد والكثير من الأحزان والاضطهادات والعذاب، وفي النهاية الاستشهاد. جميع الرسل عانوا مثله، باستثناء يوحنا اللاهوتي الذي مات موتاً طبيعياً في سن الشيخوخة.

ويقول الرسول بولس: " حقًّا إِنَّ عَلاَمَاتِ الرَّسُولِ صُنِعَتْ بَيْنَكُمْ فِي كُلِّ صَبْرٍ، بِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ وَقُوَّاتٍ" (٢ كورنثوس الثانية ١٢:١٢). (رأى الجميع كرامتي الرسولية ليس فقط في الآيات والعجائب التي فعلتها، ولكن أيضًا في صبري).

إنكم ترون مدى عظمة الصبر: الرسول، مع الآيات والعجائب، يدعو الصبر علامةً للرسل وعلامة للقداسة، وعلامة لأصدقاء الله. يقول في رسالة أخرى: "بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ نُظْهِرُ أَنْفُسَنَا كَخُدَّامِ اللهِ: فِي صَبْرٍ كَثِيرٍ، فِي شَدَائِدَ، فِي ضَرُورَاتٍ، فِي ضِيقَاتٍ، فِي ضَرَبَاتٍ.." (٢ كورنثوس ٦:٤-٥).

لقد أظهر للجميع علامة الرسول في صبر عظيم. وقد أوصى تلميذه الأسقف تيموثاوس: "وَأَمَّا أَنْتَ يَا إِنْسَانَ اللهِ فَاهْرُبْ مِنْ هذَا، وَاتْبَعِ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَالإِيمَانَ وَالْمَحَبَّةَ وَالصَّبْرَ وَالْوَدَاعَةَ." (١ تيموثاوس ١١:٦).

إذا كان على الرسول أن يتفوق كثيراً في الصبر، فكيف نرفض نحن المسيحيين الضعفاء هذه الفضيلة؟ كيف يمكننا رفض الصبر إذ نبدأ بسهولة بالتذمر على الله إذا أرسل المعاناة الحتمية للمسيحيين؟ ينبغي ألا يرفض المرء الصبر مُطلقاً، لأن بدونه يكون الطريق إلى ملكوت الله مستحيلاً بالكلية.

أنتم تعلمون كمِ الحاجة إلى الصبر كبيرة حتى في الأمور الدنيوية، فماذا نقول عن طريقنا وعن حياتنا الروحية؟ إنها أكثر أهمية لنا بما لا يقاس من الناس الدنيويين. كيف لنا أن نكتسب الصبر؟ نعتاد على التحمل، ونعتاد على عدم التذمر، فالجميع يميلون إلى التذمر. وطبعا يسألون الله الصبر.

إذا طلبنا الصبر من الله، فسنطلب ما يرضيه، وسيكون معنا بحسب كلمة المسيح: " فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ!" (متى ١١:٧).

أليس الصبر شيئاً جيداً؟ إن التماس الصبر هو طلبة ترضي الله والله لن يرذُل، فالله يساعد كل مسيحي يسألُ الصبر تحت ثقل صليبه. إن الله يساعد كل بائس، كل مثقل بعائلة كبيرة ويعاني من الفقر، إذا طلب الصبر.

ولكن ما يحدث هو أن الأشرار يطلبون الصبر أيضاً، سالكين الطريق المظلم الخاطئ، وفاعلين الشر في كل خطوة؛ هم أيضاً، إذ يرزحون تحت وطأة حياتهم الشريرة، يطلبون أيضاً الصبر. ولن يمنحهم الله الصبر، لأن هذا يعني تسهيل حياتهم المظلمة الخاطئة، والمساهمة فيها. لا يعطيهم الصبر، بل لكل الصالحين الذين يطلبونه بتواضع على طريقهم المسيحي يعطي الرب الصبر، كما يقول الرسول بولس: " لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ تَحْتَمِلُوا" (١ كورنثوس ١٣:١٠).

إنه يعطي الصبر، ولا يثقل كاهل أي شخص فوق قوته، طالما أنه لا يجبُن، طالما أنه يتذكر أن متاعبنا وآلامنا وحزننا لا تُقارَنِ بما تحمله ربنا يسوع المسيح من أجلنا. وبالتالي، علينا تحمُّل الكثير ، طالبين العزاء ، " نَاظِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، الَّذِي مِنْ أَجْلِ السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ، احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْخِزْيِ،

فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللهِ. فَتَفَكَّرُوا فِي الَّذِي احْتَمَلَ مِنَ الْخُطَاةِ مُقَاوَمَةً لِنَفْسِهِ مِثْلَ هذِهِ لِئَلاَّ تَكِلُّوا وَتَخُورُوا فِي نُفُوسِكُمْ" (عبرانيين١٢:٢-٣).

هذا ما تحتاجونه لتتقووا، من هنا يمكنكم أن تستمدوا الصبر إلى ما لا نهاية: من صليب المسيح. تطلعوا أكثر إلى الصليب المقدس، إلى المخلص المصلوب على الصليب، وصلّوا مع إفرام السرياني: أيها الرب وسيد حياتي، امنح عبدك روح الصبر. آمين.

عن المحبة

نطلب الآن المحبة التي هي تمام الناموس كله. إذا لم نقتنِ المحبة، نشبه "نحاساً يرن أو صنجاً يطن" (١كورنثوس ١٣:١)، بحسب تعبير القديس بولس الرسول.

إن كانت لدينا موهبة النبوة والمعرفة العظيمة، ولدينا إيمان يحرك الجبال، ولكن ليس لدينا محبة، فنحن لا شيء. إذا وزّعنا كل ممتلكاتنا على الفقراء وأعطينا الجسد ليحرق، لكن ليس لدينا محبة، فنحن لا شيء. هذه هي المحبة. إن لم يكن هناك محبة، بغض النظر عن مدى الكمال الذي قد نكون عليه، فنحن لا شيء.

المحبة هي كل شيء، لأن كل ما قاله السيد المسيح وما أنجزه في أيام حياته على الأرض، وفوق كل شيء، أعلنه على الجلجثة، هو عظة عظيمة مستمرة عن المحبة. هذا يعني أن المحبة شيء يجب أن يُطلب دائماً، بإصرار وباستمرار. اقتناء المحبة هو أعظم وأهم مهمة في حياتنا، لأن مهمتنا هي الاقتراب من الله، لنصبح كاملين، تماماً كما أن أبانا السماوي كامل. كيف نقترب من الله بدون محبة؟ بدونها، نكون بعيدين عن الله بلا حدود.

المحبة هي ما زرعه جميع القديسين في قلوبهم، وهو ما يمنحه الله على أنه أعظم هدية من نعمته لإتمام وصايا المسيح. هناك أناس سعداء يولدون بقلب ناعم ووديع ومحب؛ من الأسهل عليهم تحقيق المحبة المسيحية في حياتهم أكثر من أي شخص آخر، وخاصة أكثر من التعساء الذين ولدوا بقلب قاسٍ غليظ وقليل القدرة على المحبة.

إذا ولد الإنسان بقلب وديع، يبقى عليه أن يتحمل الكثير، ويعبر في طريق المعاناة على الصليب، حتى تشتعل محبة المسيح في قلبه بلهب لامع؛ يجب عليه أن يضاعف هذه المحبة المعطاة له.

لقد ملأت المحبة المسيحية قلوب الناس في العصور القديمة، خاصة في زمن الرسل، فأحب الناس بعضهم البعض مثل الأشقاء، وتمموا وصية المسيح. بهذا يستطيع الرب أن يقول عنهم: "بهذا سيعرفون أنك تلاميذي إن كنتم تحبون بعضكم البعض" (يوحنا ١٣:٣٥).

أما الآن فأين المحبة، مَن يجدها بالنار في النهار؟ سيأتي وقت رهيب يتكلم عنه الرب، مشيراً إلى علامات مجيئه الثاني. قال، من بين أمور أخرى: " وَحِينَئِذٍ يَعْثُرُ كَثِيرُونَ وَيُسَلِّمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُبْغِضُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَلِكَثْرَةِ الإِثْمِ تَبْرُدُ مَحَبَّةُ الْكَثِيرِينَ" (متى٢٤:١٠ و ١٢).

نحن نرى هذا في زماننا وهذا ما يعذب قلوبنا. نرى الكثيرين يكرهون بعضهم البعض، ويخونون بعضهم البعض، وفي قلوبهم تبرد محبتهم، ولا يبقى لها أي أثر. من الصعب بما لا يطاق أن نحيا، أن نرى أنه بدلاً من محبة المسيح، تحتدم الكراهية المتبادلة. يا له من رعب، رعب لا يوصف، عانينا منه مؤخراً، عندما ارتكب شعب يعترف بالمسيح، بالتحالف مع شعوب مسيحية أخرى - الشعب الألماني - مثل هذه الفظائع، مثل هذه الانتهاكات لقانون المحبة، كما لم يرَ ذلك العالم من قبل (على ما يبدو أن العظة في أواخر الحرب العالمية الثانية، والمؤسف أنها ما زالت تصحُّ في القرن العشرين بشكل أوسع من قَبل: المترجم).

ماذا بقي من ناموس المحبة في هؤلاء المُعتدين الذين دفنوا الأطفال والشيوخ أحياء في الأرض، وحطموا رؤوس المواليد بالحجارة، وأبادوا عشرات الملايين من الناس؟ أين المحبة؟ لم يكن هناك أثر لها. المحبة منسية. بدلاً من ناموس محبة المسيح، يعيش العالم بقانون العِداء العالمي. كل من يتابع في الصحف ما يحدث في العالم يرتجف عندما يرى كيف تنتصر أكثر الأكاذيب الشيطانية، وكيف تُشجِّعُ القوى العظمى العنف السياسي الذي يستحق الإدانة الشديدة.

وماذا عمَّا حولنا؟ إن العيش في مدينة هو أكثر خطورة منه في غابة كثيفة، إذ أن هناك العديد من قطاع الطرق في المدينة، مشبّعين بالخبث والكراهية. بالنسبة للناس في المدينة - الأشخاص المعمَّدين الذين كانوا مسيحيين في يوم من الأيام - أصبحوا أكثر شراً وخطراً من الحيوانات. تُداس المحبة المقدسة، وبأحذية قذرة، ويُداس إنجيل المسيح، ولا أحد يريد أن يسمع عن المحبة.

ماذا الذي يجب أن نفعله، وكيف يجب أن نكون؟ أنصير أيضاً ذئاباً، كما الكثير من حولنا؟ بالطبع لا. يجب أن نحفظ محبة المسيح حتى المجيء الثاني للرب يسوع المسيح، ويجب أن تُحفَظ محبةُ المسيح في قلوب قطيع المسيح الصغير، وأهوالُ الحياةِ، أهوالُ الإثمِ والمحبةِ المُداسة، الأهوال التي نراها كل يوم وكل ساعة، يجب أن تُشجِّعَنا أن نُضرِم في قلوبنا محبة المسيح المقدسة.

كيف نفعل ذلك؟ لِمَن تُعطى المحبة؟ فقط للذين يتممون وصايا المسيح، الذين يسلكون طريق الألم الضيق، دون أن يتركوا هذا الطريق بغض النظر عما يتهددهم من الألم والاضطهاد. اذهبوا، اذهبوا، امضوا إلى ما لا نهاية على طول طريق الصليب هذا، تابعوا دون النظر إلى الوراء، اذهبوا إلى نور المسيح. إذا تحركنا بعناد وبلا انقطاع نحو النور، فسنصل إليه.

كيف يمكنكم أن تحبوا الذين يعذبوننا: اللصوص وقطاع الطرق والمغتصبين الذين يلحقون بنا ضرراً كبيراً؟ هذا ممكن، ربما ليس بشكل كامل، ولكن على الأقل إلى حدٍّ ضئيل. فكروا في ماهيَّةِ الشفقة. إنها شكل من أشكال المحبة عند القديسين. ألا ينبغي أن نشعر بالأسف من كل قلوبنا على الأشخاص الذين رفضوا المسيح، والذين يسلكون طريق الهلاك، والذين يذهبون إلى أبيهم الشيطان؟ ألا يجب أن تشعروا بالأسف تجاههم؟ من المستحيل أن تحبوهم المحبة النقية الكاملة، لكن من الممكن أن تشفقوا عليهم، راثين في قلوبكم أن هؤلاء التعساء هم على طريق الموت. حين لا نلعن هؤلاء الناس، نتمم ناموس المسيح في ما يتعلق بهم.

هل تعلمون أن القديس العظيم سيرافيم ساروفسكي قد تعرض لهجوم من لصوص، هم مجموعة فلاحين من قرية مجاورة للدير، ضربوه ضرباً مميتاً وسحقوا جمجمته وكسروا أضلاعه حتى فقد وعيه واستلقى في مستشفى الدير لعدة أشهر إلى أن جاءت والدة الله الفائقة القداسة لشفائه. كيف كان رد فعله تجاه اللصوص؟ لقد تم القبض عليهم، وسُلِّموا إلى المحكمة، لكن الراهب سيرافيم توسّل بدموع كي لا تتم معاقبتهم، بل السماح لهم بالرحيل. لقد بكى وأشفق عليهم وبالتالي أحبهم.

عدد غير قليل من القديسين الآخرين أظهروا هذا الشفقة من قبل. هذه هي الطريقة التي عامل بها القديسون مَن فعلوا بهم شراً. هكذا أيضاً يتسامحُ اللهُ نفسُه مع الخطأة، حتى أنه تحمل لصاً رهيباً مثل باراباس، الذي قتل ثلاثمائة شخص، ثم تاب مقدماً لله توبة لا يمكن تخيلها، وقد حصل على المغفرة من الله الذي أحبه حتى أنه تلقى موهبة المعجزات.

الرب نفسه طويل الأناة تجاه الخطأة، فكيف نجرؤ على أن نكرههم ونلعنهم؟ يجب أن نشعر بالأسف تجاههم، والشفقةُ هي، كما قلت، أحد أشكال المحبة.

إذا كان بإمكان المرء أن يشفق حتى على القتلة والأشرار، فماذا نقول عن المذنبين الأقل خطورة - عن اللصوص التعساء، وعن كل الذين يموتون في الخطايا؟ يجب أن يشفَق عليهم أكثر مما أشفق الراهب سيرافيم على قتلته. لا يقُلْ أحدٌ: "كيف يمكنني أن أحب هؤلاء الناس الذين يسممون حياتنا ويهينون الشعب الروسي؟" على الجميع ألا يلعنوا، بل أن يشفقوا عليهم، وعندها تحل محبة المسيح في قلوبنا. إنها تتغلغل بشكل غير محسوس، يوماً بعد يوم، في قلب مَن يحاول إرضاء الله، ويصلي دائماً، ويذل جسده بالصوم، ويحاول مساعدة الناس الذين حوله.

تتدفق محبة المسيح من قلب مثل هذا الإنسان ، وتملؤه حتى تطفَحَ وتفيض، مثلما فاضت من الراهب سيرافيم على الخطأة الذين جاؤوا إليه بالآلاف. صلّوا إلى الله من أجل هذه المحبة بكلمات القديس أفرام السرياني: "أيها الرب وسيد حياتي، أنعِم على عبدك بروح المحبة!" والله يمنحكم روح المحبة. آمين.

خاتمة

تنتهي صلاة أفرام السرياني بطِلبة بالغة الأهمية: "نعم يا ملكي وإلهي، هبَ لي ان أعرف ذنوبي وعيوبي وألاّ أدين إخوتي، لأنك مبارك إلى الدهور. آمين."

إن إدانة إخوتنا هي أعمق عاداتنا الدنيوية. إن إدانة إخوتنا هي ما ننشغل به دائماً، فنترك أهم أعمالنا، أي النظر في آثامنا.

لدى الجميع العادة نفسها: من بداية النهار وحتى الليل، نفكر في كل شيء، نفعل كل شيء، إلا الشيء المهم الذي هو الانتباه لقلبنا. لا أحد يفعل هذا باستثناء عدد قليل جداً من الناس الذين كرسوا أنفسهم لله، يقومون بهذا العمل الأساسي والأهم: إنهم يبحثون عن شوائب الخطيئة في قلوبهم. فإذا وجدوها يتخلصون منها

بسهولة وبسرعة، لأنهم إذا وجدوا نجاسة في قلوبهم يشمئزون ويبذلون قصارى جهدهم للتخلص منها. عندما يرون خطايا يتوبون ويتطهرون منها.

تذكروا كلمات الرسول بولس لنا: "وَأَمَّا أَنْتَ، فَلِمَاذَا تَدِينُ أَخَاكَ؟ أَوْ أَنْتَ أَيْضًا، لِمَاذَا تَزْدَرِي بِأَخِيكَ؟ لأَنَّنَا جَمِيعًا سَوْفَ نَقِفُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ" (رومية١٤:١٠). عندما ندين الآخرين، نحن لا نتذكّر ولا نلاحظ أننا نحن أنفسنا نحمل الذنب نفسه. ونحن نعرف أن دينونة الله ليست على الخطايا التي اقترفناها وحسب، والتي ندين أخوتنا من أجلها، بل على الإدانة بحد ذاتها: "أَفَتَظُنُّ هذَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تَدِينُ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ، وَأَنْتَ تَفْعَلُهَا، أَنَّكَ تَنْجُو مِنْ دَيْنُونَةِ اللهِ؟" (رومية ٢:٣). إن الرب يرشدكم إلى التوبة وليس إلى إدانة الآخرين. لا تنشغلوا بالآخرين.

تذكر كيف أحضروا إلى الرب امرأة ضُبطَت في الزنا وسألوا: " يا معلّم، مُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟" لم يرد السيد المسيح على الفور. جلس في فناء الهيكل وكتب شيئاً بإصبعه على الرمل. وفقط عندما سألوه مرة أخرى، أعطى أروع جواب يمكن إعطاؤه: " مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ!". بخجل شديد، انحنى الكتبة والفريسيون الذين اعتبروا أنفسهم أبراراً، وبدؤوا يتفرقون الواحد تلو الآخر. وتابع يسوع كتابته على الرمل ثم رفع رأسه أخيراً وسألها: "يَا امْرَأَةُ، أَيْنَ هُمْ أُولئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟.. وَلاَ أَنَا أُدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضًا" (يوحنا ٨:٤-١١).

يا له من حظر مذهل للإدانة، كيف قال الرب بوضوح أنه على المرء أن يفكر أولاً وقبل كل شيء في خطاياه. مَن كان بلا خطيئة فليرمِ الحجر الأول. لسنا بلا خطيئة، مما يعني أن علينا ألاّ نجرؤ على إلقاء حجر الإدانة على الآخرين. لكننا نرمي الحجارة باستمرار، كل يوم وكل ليلة نرمي حجارة الإدانة: " مَنْ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ؟ هُوَ لِمَوْلاَهُ يَثْبُتُ أَوْ يَسْقُطُ. وَلكِنَّهُ سَيُثَبَّتُ، لأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُثَبِّتَهُ..... لأَنَّنَا جَمِيعًا سَوْفَ نَقِفُ أَمَامَ كُرْسِيِّ الْمَسِيحِ" (رومية١٤:٤ و ١٠). إننا بحاجة إلى التفكير في هذا الحكم علينا، وبأنفسنا، وألا نهتم بخطايا الآخرين. انظروا كم هو مقدس ومهم هذا القانون.

ماذا نفعل إذا رأينا شخصاً من الواضح أنه يخطئ ويستحق الإدانة؟ حتى في هذه الحالة لا ينبغي لأحد أن يدين، بل يجب أن يضع الباب الحصين على شفتيه ولا يدين الخاطئ، بل أن يشفق عليه، ويتذكّر أن جوابه ثقيل أمام الله، ويصليَ بصمت صلاة قصيرة: يا رب، اغفر له. وحينئذ يهرب شيطان الدينونة في الحال، لأن الشياطين تهرب من الصلاة. إذا أدنّا، سيبقى الشيطان، و ندين مرة أخرى، ونبقى ندين بلا نهاية.

من أين يأتي روح الإدانة؟ من الكبرياء، من حقيقة أن الكثيرين يعتبرون أنفسهم أفضل وأرفع من غيرهم. غالباً ما تكون هناك إدانة بسبب الحسد: نحن نحسد الذين اقتنوا مواهب روحية، وأحياناً لمجرد أنهم أتقياء، والحسد يؤدي إلى الإدانة. الناس يدينون بسبب الضغينة والحقد. هناك القليل من المحبة، لكن هناك الكثير من الغضب والحقد في قلوبنا. هذا الحقد، هذه الكراهية تدفعنا إلى إدانة أخوتنا، وإغماض أعيننا عن خطايانا وعيوبنا.

في كثير من الأحيان، نحن ندين الإنسان بدون أي حسد. غالباً ما يأتي هذا من عادة الإدانة المتأصلة . الإدانة، مثل أي شيء آخر، تصبح عادةً عندنا إذا كنا ندين باستمرار. كل ما نقوم به مراراً يصبح عادة عندنا. إذا كان أحد ما يحسد، إذا كانت الكراهية تمتلك قلبه، فإن عادة الإدانة ستتجذر، وسيبقى يدين دائمًا بلا كلل وبلا توقف.

يجب القضاء على هذه العادة وعدم السماح لها بالنمو فينا. يجب أن تضبطوا ذواتكم عند كل إدانة، فتدينوا ذواتكم على كل إدانة. إذ ندين أنفسنا مرة أو مرتين، نتعلم الامتناع والتوقف عن الحكم على الآخرين، ونركّز نظرتنا الروحية على قلوبنا.

لذلك فلنتممْ ما نطلبه في صلاة أفرام السرياني: نعم يا ملكي وإلهي، هب لي أن أعرف ذنوبي وعيوبي وألاّ أدين إخوتي، فإنك مبارك إلى الأبد. آمين.

أحد الأرثوذكسية

المتروبوليت أثناسيوس مطران ليماسول

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في الأحد الأول من الصوم، نحتفل بأحد الأرثوذكسية، ألا وهو عيد إعادة الأيقونات المقدسة، حيث تغلبت الكنيسة، مرة أخرى، وبنعمة الله على بدعة محاربي الأيقونات، وحافظت بدقةٍ على إيمان وتقليد آباء الكنيسة القديسين كما قد تم حفظه عبر الأجيال.

إن نتيجة هذا الإيمان هي شفاء الجنس البشري، خلاصنا وتألّهنا. إن تكريم الأيقونات هو برهان على اعترافنا بأن الله قد صار شخصاً يمكن وصفه، وبأن كلمة الله قد تجسد فعلاً وصار إنساناً، وأيضاً أن البشر يصيرون حقاً أولاداً لله وأوانيَ للروح القدس، هياكل لله وأعضاء المسيح. إننا نكرّم أيقونات القديسين ورفاتهم لأن الله قد سكن فيها. لذلك نحتفل بإعادة الأيقونات المقدسة ولدينا العادة المباركة بحملها في زياح، وتكريم واحتضان أيقونات المسيح وسيدتنا [العذراء] وقديسي الكنيسة.

وبما أن موضوعنا هو الأيقونات، فلنتذكر الأيقونة بامتياز، أيقونة الله: الإنسان. أول من صنع أيقونة أو صورة عن نفسه هو الله، وهذه الأيقونة هي الإنسان. قال الله: "فلنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا"، وبالفعل أصبح الإنسان أيقونة الله الثالوث، أيقونة الله غير المنظور. يمكننا أن نرى صورة الله هذه. الإنسان هو أجمل وأحب مخلوقات الله. لو أراد الله خلق شيء أفضل، لفعل ذلك. صورتُه، الإنسان، كان أفضلَ ما خلق. ولكن أيقونة الله الأكثر جمالاً، والتي كانت تحمل كل المواهب التي أعطاها الله إياها عند خلقها، قد تهشمت وتحطمت مع الأسف، لأن الشيطان تمكن من سحقها.

لم يكن صراع محاربي الأيقونات ظاهرةً من القرن السابع. لقد بدأ منذ ظهور الإنسان. أثار الشيطان حرباً ضد أيقونة الله، ضد الإنسان، وتمكن من تحطيمها، وجعلها تقع ضحية الموت والخطيئة، وجعل هذه الصورة الجميلة مشوهة لدرجةٍ لم تعد فيها شاهداً على جمال الله، بل شيئاً بات قبيحاً ومليئاً بالأهواء والخطايا. ولكن الله لم يشأ أن يرى صورته تعاني من البؤس. لم يشأ أن يرى أيقونته التي قد خلقها بكثير من المحبة والرعاية تضيع في دمار السقطة والخطيئة. لذلك فقد صار هو نفسه إنساناً ونموذجاً لخلاصنا. وليساعدنا في إعادة اكتشاف جمال وبهاء خلقنا حين خرجنا من بين يدَيه، أسس الكنيسة، التي من خلالها، أولاً وقبل كل شيء، يمنح نعمة الروح القدس. إن مهمة الروح القدس هي تجديد طبيعتنا المنفسدة وإعادة ولادتنا. تتحقق إعادة الولادة هذه عبر عاملين: الأول هو نعمة الروح القدس، والثاني هو الحرية البشرية. هكذا يعيد الله خلقنا. أولاً وقبل كل شيء من خلال سر الروح القدس. حين ننال المعمودية، يتم إنجاز السر العظيم لإعادة خلقنا؛ نطرح إنساننا القديم ونلبس المسيح، إنساننا الجديد. بعدئذ، وبقوة الروح القدس المعطى لنا من خلال الميرون

المقدس، نتنشّط ونتلقّى القوة، ليتم تفعيل المواهب التي مُنِحت لنا عبر المعمودية والميرون لإعطاء ثمار روحية ولتمجيدنا وتقديسنا.

من جانب الله، أُنجز كل شيء على أكمل وجه وبطريقة تليق به. صنع الله خلاصنا وأنهى مهمته؛ والأمر الآن عائد إلينا في كيفية جعل هذه العطايا خاصتنا. الناس الذين تعمّدوا على اسم الثالوث القدوس، في الكنيسة ومن خلال الكنيسة، ومُسِحوا بالروح القدس، هم من الآن فصاعداً أشخاصٌ قد أعيدت ولادتهم في المسيح، ويمكنهم الآن أن يمضوا قدماً ويُفعِّلوا في داخلهم تلك المواهب التي صنعها الله لهم. إذاً نحن جميعاً معمدون بنعمة الله. لا يهم إذا كُنا رُضَّعاً حين تعمدنا [أي أن ذلك لا يلغي فاعلية السر، وليس المقصود أن معمودية الأطفال غير مهمة]، لأن المعمودية ليست نتيجة مشيئتنا الذاتية وفكرنا الشخصي، بل نتيجةَ وفِعلَ الروح القدس. إن ما يحصل بعد المعمودية هو ما يتطلب تعاوننا وقبولنا. في المعمودية، لا توجد موهبة لا يمنحنا الله إياها. إنه يجدد الشخص بالكليَّة، يعيد تشكيله وحقاً يُلبِسه المسيح. وهكذا نبدأ جهادنا، وبما أن الله لا يتصرف بطريقة سحرية، ولا يطمس الحرية البشرية، لذلك فإن حريتنا الشخصية مطلوبة لتعمل مع نعمة الله.

إن الجهاد الروحي الذي ننخرط فيه منذ أن نصبح واعين لأنفسنا خلال مسيرة حياتنا هو بالضبط كيف نفعّل تلك المواهب التي تلقيناها عند المعمودية، والتي نملكها بالطبع منذ خلقنا. ولكوننا مجروحين ومُستعبدين للخطيئة فإن المعمودية ضرورية لنا، ولأجل ذلك أصر المسيح: "من آمن واعتمد يخلص"، لأن المعمودية ضرورية، مع الإيمان، لكي نخلص، إذْ بدونهما لا يمكن أن نولد من جديد.

وهكذا يبدأ الجهاد وهو جهاد ضد تحطيم الأيقونات. إنه صراع من الشيطان، ومن خطيئة بيئتنا، ومن صراعنا مع صورة الله، وضد الصورة التي نحملها في داخلنا.

كيف سيحطم الشيطان صورة الله التي فينا من طبيعتنا ومن معموديتنا؟ الخطيئة هي ما يدمر الصورة؛ هذا ما يلوث الصورة ويشوهها، ما يجعل الناس ممزقين وغير قادرين على العمل بشكل طبيعي كما خلقهم الله. الخطيئة هي بالأساس عبودية، تستهدف حريتنا بشكل مباشر وتقتلها، ولهذا فهي إهانة تجاه الله والشخص. الناس الخاضعون للخطيئة لا حرية لديهم. في كل ناحية ننغلب فيها من الخطيئة نكون عبيداً للخطيئة. وبعد ذلك، فإن المحبة التي كانت لدينا كوننا قد خُلقنا على صورة الله، والتي كانت موجهة نحو الله، ومن خلال الله إلى العالم والخليقة وإخوتنا البشر، تصبح محبة أهوائية، صنميّة وفاسدة. فيما يتعلق بالخليقة تصبح عبادة وثن، وفيما يتعلق بالأهواء تتحول إلى شهوانية ورغبة وجشع. الشخص الذي كان جميلاً جداً كما خلقه الله، وفوق كل شيء حراً، هو الآن عبد وأسير هذه الرباطات.

رغم أننا معمدون ومختومون بالروح القدس، ومع أننا نملك في داخلنا بذار جمال الله، مازال يتعيّن علينا أن نقدم تآزرنا لئنمي كل هذه البذار.

كيف يمكن للناس إعادة صنع صورة الله ورؤية الجمال الرائع الذي يمتلكونه بالطبيعة منذ خلقهم؟ لأجل ذلك فإن هذا الجهاد الروحي من جهة الكنيسة هام جداً، لأننا نعلم أن هدف الجهاد هو استعادة أيقونة الله التي تهشمت. وخصوصاً في هذه الفترة، تحشد الكنيسة كل قواها لمساعدة كل منا لاستكمال جهاده الخاص

وهدفه. لدى الكنيسة أسلحة وأدوية روحية، لأن الأمر هو جراحة روحية؛ لديها [الكنيسة] أدوات لتخليص الجسد والنفس من المرض، وتعرف كيف تمنح الناس صحتهم. بالصوم والصلاة واليقظة وعمل الرحمة والاعتراف والاشتراك في الأسرار المقدسة وسر الشكر الإلهي، كل ما تقدمه الكنيسة هي أدوية تدمر الشيطان. إن حضور الله في الكنيسة يجدد صورتنا، ونصير حقاً كما خلقنا الله، صورة وشبهاً. يحدث ذلك حين يدخل الإنسان حيز النعمة. ومن ينجحون هم أولئك الذين يجدون المفتاح لدخول ملكوت السموات، الذين تعلموا التوبة، الذين تمكنوا من تغيير طريقة تفكيرهم وواضعوا أنفسهم. فلنبقِ أيقونة الله هذه أمامنا ولنقاتل ضد اضطهاد الأيقونات الذي يشنه الشيطان، والذي يرغب في تحطيم صورة الله التي لبسناها في معموديتنا المقدسة.

Source: Metr. Athanasios of Limassol. Homily for the Sunday of Orthodoxy. https://www.johnsanidopoulos.com/2019/03/homily-for-sunday-of-orthodoxy-metr.html

القديس غريغوريوس بالاماس والهدوئيون*

بافلوس موكتاروذيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يُخصص الأحد الثاني من الصوم للقديس غريغوريوس بالاماس (القرن الرابع عشر)، وهو هدوئي من الجبل المقدس ومن ثمّ رئيس أساقفة تسالونيكي.

دافع القديس غريغوريوس بالاماس عن هدوئيي الجبل المقدس الذين تعرّضوا للسخرية والهجوم من الإنسان الذي عبّر عن روح الكنيسة الغربية، الراهب برلعام الذي من كالابريا في جنوب إيطاليا. عندما دافع القديس غريغوريوس عن هؤلاء الرهبان، أوضح الإيمان الأرثوذكسي بالله، والطريقة التي يمكننا من خلالها الاقتراب منه وماهية خلاص البشرية. إذا تمّ تغيير الإيمان، بأي طريقة، فإن حياتنا "في المسيح" تتغيّر ويُحبَط خلاص البشرية.

الغرب

من بين الذين غيّروا إيمان الكنيسة الحقيقي هي الكنيسة في الغرب. ما هو الفرق الأساسي بينها وبين العقيدة الأرثوذكسية؟ السمة الرئيسية للغرب هي العقل. مصدر إيمان الكنيسة الأرثوذكسية هو العلاقة بين الناس والله. أولاً الله ثم الناس. قال الرسل: "لقد بدا حسناً للروح القدس ولنا". تشير كلمة "لنا" إلى أن الرسل تبعوا الروح القدس. تحاول الكنيسة الأرثوذكسية الاقتراب من سر الله، واختبار حياة المسيح، بقدر ما يكون ذلك ممكناً للناس، اعتماداً على درجة علاقتهم مع الله، في ما يتعلق بالتطهير الداخلي ومقدار النعمة التي يتلقونها من الله. من جهته، يحاول الغرب الاقتراب من الله فكرياً من خلال العقل البشري ومعرفة الطبيعة. لكن سر الله "فوق العقل". فكيف يمكن أن يفهمه العقل؟

لقد ذمّ برلعام هدوئيي الجبل المقدس الذين، بهدف الاقتراب من الله، سعوا إلى تطهير نفوسهم بالصلاة غير المنقطعة، حتى تسكن نعمة الروح القدس الممجّدة في داخلهم، وتمكنوا من تحقيق كلام المسيح الذي أصبح تقليداً في الكنيسة الأرثوذكسية: "طوبى لأنقياء القلب، لأنهم سيعاينون الله" (متى ٥:٨). كان هذا التقليد غريباً عن الغرب وغير معروف هناك. لهذا السبب، في المناقشات التي أجراها مع القديس غريغوريوس بالاماس، ادّعى برلعام، الذي عبّر عن الروح الغربية، أنه كلما تقدم الناس في المعرفة والآداب والفلسفة، كلما عرفوا الله بشكل أفضل واقتربوا منه. إن جوهر الأمر في العقل وليس في "تنقية القلب" كما قال السيد المسيح. لم يوافق القديس غريغوريوس على هذا الرأي، لأن هذا الأمر، بغضّ النظر عن أي شيء آخر، يترك غير المتعلّمين والأميّين بلا أمل في الخلاص.

القديس غريغوريوس والهدوئيون

مَن كان الهدوئيون؟ إنهم أولئك الذين سعوا في حياتهم إلى "الهدوء"، وهو ليس مجرد تجنب الضجيج الخارجي، أي التلوث الضوضائي. من السهل أن تجد هذا الهدوء إذا غادرت العالم من حولك. ما يصعُب تحقيقه هو تحقيق الهدوء الداخلي بمجرد التخلص من الاضطرابات الداخلية التي خلقتها طريقة التفكير الدنيوية وملاءمتها، ومشاغل الحياة، والرغبة في الثروة ووفرة السلع، وأفكار الجسد التي "تولّد أبناء وبنات في القلب" (آفاغوريوس)، نار الإلحاح الحسي والميل العام نحو الخطيئة. كل هذا يخلق "ارتباكاً داخلياً" واضطراباً. عندما تغيب هذه، تأتي نعمة الروح القدس إلى القلب، مما يجعل الناس راضين ومسالمين.

لكي يأتي هذا الهدوء المنشود، المطلوب هو الجهاد ضد كل الأشياء التي تحتفظ بطبيعتها القديمة. يجب أن يصبحوا مسيحيين، جنود المسيح، "غير ماديين وخالين من الاهتمامات"، "بمنأى عن أي رغبة" ويجب أن يلقوا "كل همومهم على الرب". يجب أن تصبح حياتهم صلاةً بلا انقطاع، فيما المسيح ساكن في القلب الذي يحمل ثمار الهدوء الحقيقي. إن الناس الذين ينجحون في هذا الجهد يُسَمّون الهدوئيين. هذا هو حال الناس قبل السقوط، أي حالة الملكوت.

منذ القرون المسيحية الأولى، كان هناك هدوئيون ختموا بأسلوب حياتهم طبيعة الحياة الروحية لكل القرون اللاحقة. لقد تخلّوا عن المدن و "حضّروا الصحراء"، ليس للابتعاد عن العالم، بل لتكريس أنفسهم كلياً لله. لقد جلبوا مشاكل العالم إلى المذبح، وبصلواتهم غالباً ما وضعوا حداً للجفاف والزلازل والحروب والأوبئة والمرض وما إلى ذلك. على سبيل المثال، أنطونيوس الكبير كان "للمسكونة بصلواته مشدداً" بحسب ما ترنمه الكنيسة.

هؤلاء هم الذين ذمّهم برلعام وسخر منهم، لأنه لم يقتنِ خبرة النسك والصلاة التي لا تنقطع. قال عنه القديس غريغوريوس أنه "عقلن الله". أي أنه بالنسبة لبرلعام كان الله موضوعاً للعقل أو فكرة، في حين أن الهدوئيين "اختبروا الأمور الإلهية". بالنسبة لهم، كان الله شخصاً جاهدوا لربط أنفسهم به. بنسكهم و"تذوّق" الصليب "بذلوا الدم ليتلقّوا الروح". اعتبر برلعام أن الهدوئيين بطّالون. ولكن أيّ عمل في العالم الخارجي قد يرفع الناس إلى السماء ويجعلهم آلهة "بالنعمة"؟ ما من عمل. ومع ذلك، فإن "عدم النشاط" عند الهدوئيين فعل ذلك. لهذا يقول القديس غريغوريوس أنه "نشاط يفوق كل نشاط" لأنه "نشّط" التمجيد.

هذا "الخمول" (عدم النشاط) هو الصلاة المتواصلة "يا رب يسوع المسيح ارحمني". إن إيجازه ساعد العقل على التركيز في القلب والتشبث بالله. وبعد نزوله إلى القلب صار سلاحهم ضد الشيطان. صارت الصلاة مشبعة عندهم، حتى لو كانت أجسادهم مشغولة بشيء آخر. بما أن الصلاة توحدت مع حياتهم، أو بالأحرى كانت حياتهم بالفعل، فلم يمنعهم أي عمل جسدي عن الصلاة بلا انقطاع. في الفردوس، قبل السقوط، كانت الحياة علاقة مستمرة مع الله، والهدوئيون عادوا إلى هذه الحالة، بقدر استطاعتهم. لقد تمكنوا من معاينة النور غير المخلوق، الذي يقول القديس غريغوريوس أنه "أقنومي"، ما يعني أنه لم يكن مجرد سطوع محسوس، بل ضوء "في أقنوم"، "في شخص". وهذا الشخص هو الرب يسوع المسيح.

يلاحظ القديس غريغوريوس أنه "عندما تأتي الصلاة من عقل صافٍ (خالٍ من كل ما هو محسوس)، يخرج الذهن من الصلاة، ممتلئاً بالدفء، كما لو كان فيه نار (نار النعمة الإلهية)". ويتابع قوله بإنه يعتقد أن العَرَق الذي كان يقطر من وجه الرب أثناء صلاته المتألمة في الجثسمانية كان نتيجة دفء الصلاة الداخلي.

قال القديس غريغوريوس أن الهدوئيين وضعوا تطويبة الرب موضع التنفيذ: "طوبى لأنقياء القلب، لأنهم لله سيعاينون". وكما وعد الرب بأنه سوف "يسكن معهم ويسير بينهم" (٢ كورنثوس ٦:١٦). لقد وعد الذين يحبونه حقاً بأنه سيأتي مع أبيه ويقيمون في قلوبهم مسكناً.

لقد عاش الهدوئيون تقليد الكنيسة بأنّك إذا طهّرت نفسك من الأهواء، فإنك تقترب من الله وتتمجد وهذا التمجيد هو خلاصك. اليوم، عندما نتعب جميعاً من الضوضاء في داخلنا كما في الخارج، فإن رسالة القديس غريغوريوس بالاماس هي الأكثر ملاءمة. فلنعُد إلى أنفسنا، إلى التأمل والتركيز والبحث عن الله والعلاقة والشركة معه، فنشعر بالرضا الذي وعدنا به: "أمنحهم الراحة".

* (الأحد الثاني من الصوم)

Source: Pavlos Mouktaroudis, Διήρχετο διά των σπορίμων, vol. II, 1st edition, Metropolis of Lemessos 2008, pp. 380-4.

نكران الذات وحمل الصليب *

الخورية سميرة عوض ملكي

نجد في إنجيل اليوم أن الربّ يسوع يضع شرطاً لاتّباعه وهو نكران الذات وحمل الصليب (مرقس ٨:٣٢). فماذا يعني هذا؟ تطلب الكنيسة منّا أن نسأل أنفسنا "ما الذي تعنيه قوة الصليب بالنسبة لي شخصياً إذ أعيش في العالم اليوم؟" للأسف لقد فقد الصليب معناه، الشخصي والجماعي، لدى كثيرين في الثقافة الدهرية اليوم، الغارقة في أولويات الحياة اليومية، حيث تحتل الكنيسة المرتبة الخلفية بين العديد من الأولويات الزمنية الأخرى. فالعالم اليوم يحثّ على التركيز على الذات والأنا، "أنا أولاً"، وهذا يظهر في الإصرار على عدم حرمان أنفسنا من أي شيء، لأننا "غداً نموت". إن هذه الثقافة تقود إلى الخمول الروحي والموت الروحي وتشجّعهما. إننا ننتقل في هذا العالم من سيء إلى اسوأ. إنه عالم تزداد فيه صعوبة أن يكون الإنسان مسيحياً حقيقياً.

هنا يأتي الصليب ونكران الذات كَرَدٍّ على العالم الساقط ويأسه، على الذين ينكرون الله ودعوته المُحِبَّة لحياتهم، وعلى كلِّ مَن يتعثّر في إيمانه. الصليب هو دائماً تذكير بالواقع المطلَق وأهمية ملكوت الله بالنسبة لنا، وتذكير بإخلاء المسيح لذاته (Kenosis في اليونانية)وتقدمته الطوعية لنفسه لهزيمة الخطيئة والموت نيابةً عنّا، وخلق إمكانية وجود نسل جديد لآدم ينتصر بالمسيح على الخطيئة والموت.

لكن في الحقيقة لا يمكننا أن نتبع المسيح ونصبح مشاركين في حياته إذا لم نكن على استعداد لإخلاء ذواتنا من كلّ ما لا يتماشى مع المسيح وإنجيله. ففي "موتنا عن الذات"، نحن الذين نحمل صليبنا مُعطين الأولوية للمسيح والإنجيل، نستعيد إنسانيتنا الحقيقية، وغايتنا ودعوتنا في هذه الحياة التي وهبنا إياها الله (مرقس ٨:٣٥).

أن نحمل الصليب اليوم معناه أن نحتمل الضيقات والأحزان والمجاعة والزلازل الآتية بكل تواضع وخضوع للمشيئة الإلهية. عندها يصير الصليب بمثابة سلم يقودنا من الأرض إلى السماء كما حصل مع لصّ اليمين المذكور في الإنجيل، الذي صعد من أرضِ أقبح الجرائم إلى ألمع مساكن الفردوس. فعلى صليبه تلفّظ اللصّ بالكلمات المملؤة بالحكمة والتواضع، إذ قال: "أمّا نحن فبعدلٍ لأننا ننال استحقاق ما فعلنا... اذكرني يا ربّ متى جئتَ في ملكوتك" (لوقا ٢٣:٤١-٤٣)ـ بهذا حوّل صليبه الذي كان أداة العقاب وراية العار إلى أداة النصر وراية المجد ومفتاح الفردوس على مثال صليب الربّ. هذا كان بعكس ما فعله لصّ اليسار الذي جدّف على المسيح، كما يفعل الكثيرون اليوم، فيتذمّرون من صليبهم ويجدّفون على الله ويتهكّمون على الصليب ويحاولون التخلّص منه. بهذا يصبح صليبه ثقيلاً لا يُحتَمَل ويؤدّي بصاحبه إلى الجحيم، فيصرخ هكذا: "ما الذي فعلتُه أنا ليحدث لي هذا؟" ذاك لأنه لا يدرك نفسه ولا يتوب، ويتّهم الرب العادل والرحيم بالظلم وعدم الرحمة ويوبّخ العناية الإلهية ويرفضها.

إن إنكار الذات أو بذل حياتنا من أجل المسيح ومن أجل الإنجيل الذي هو رسالة من المسيح نفسه وعمّا أنجزه لخلاصنا، والشاهد الأول لحقيقة الله التي تألّم من أجلها ومات على الصليب. هـذا لا يعـني أن حياتنـا بلا فائـدة وليست مهمّة في عيني الرب، بل بالحري أن لا شيء يمكن أن يقارَن بما سنربحه مع المسيح.

+ عن نشرة الكرمة

* حول إنجيل أحد السجود للصليب

إشارة الصليب في العهد القديم

ثيوذور روكاس

نقلتها إلى العربية اسرة التراث الأرثوذكسي

في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، يذكر القديس بولس أن "اليهود يطلبون علامة" (١ كورنثوس ٢٢:١)، أي أنهم أرادوا علامة خارقة للطبيعة، مثل قيامة الموتى أو شفاء الممسوسين بالشياطين، ما يجعلهم يؤمنون بالوعظ عن الصليب. لذلك سعوا وراء هذه العلامة الفائقة الطبيعة، متجاهلين وجاهلين كل العلامات والعجائب التي أظهرها الله لهم في الماضي، في كل مرة كانوا يجدون أنفسهم في خطر. بالطبع، لا يمكن أن تكون العلامة التي كانوا يبحثون عنها سوى الصليب الذي هو، من ناحية ، يُشار إليه على مدى العهد القديم بأكمله، ومن ناحية أخرى، كان دائماً حاضراً، يحافظ على شعب الله من الخراب والإبادة.

يوجد عدد كبير جداً من الإشارات المميزة إلى علامة الصليب المكرَّم في العهد القديم، لكننا هنا سنستشهد بستة أمثلة محددة فقط.

العلامة الرئيسية لارتفاع الصليب في تاريخ الشعب اليهودي هي تلك التي قام بها موسى عندما شقّ مياه البحر الأحمر بعصاه بأمر من الله، حتى يتمكن الإسرائيليون من العبور وتجنّب مطاردة المصريين. نجا الشعب وعادت المياه بعد ذلك واجتمعت كما كانت من قبل (خروج ١٤:١-٣١). لهذا السبب، في عيد رفع الصليب المكرّم، ترنم الكنيسة: "إن موسى لما رسم الصليب، ضرب بالعصا مستوية، فشق البحر الأحمر" (إرمس ، الأودية الأولى، قانون السحرية).

عندما وصل الإسرائيليون إلى رفيديم (حوريب)، رسم موسى علامة الصليب مرتين. الأولى عندما ضرب الصخرة ليخرج الماء للشعب العطشان ليشربوا. والثاني عندما رفع ذراعيه وعصاه إلى السماء للصلاة ولتشجيع الإسرائيليين الذين كانوا يقاتلون العمالقة (خروج ١٧:١-١٦). كانت علامة الصليب هي التي أعطت العون للمحاربين الإسرائيليين وشجعت جهودهم لتحقيق النصر، بحسب القديس غريغوريوس بالاماس (PG.133-136). يذكر ثيودوريتوس الكورشي أنه، بصرف النظر عن علامة الصليب، فإن صورة الرب المصلوب قد تم تصويرها مسبقاً أيضاً (PG 80 ، 260-261).

صنع موسى هذه العلامة المقدسة مرة أخرى، عندما قاد شعب إسرائيل إلى أدوم. وهناك أصيبوا بالإحباط وفقدوا إيمانهم بالله، مما أدى إلى أن يرسل الله أفاعٍ سامة ذات لدغ قاتل، ما تسبب بوفيات كثيرة. بعد أن تابوا، أمر الله موسى أن يصنع ثعباناً من البرونز ويرفعه على عمود. كان كل مَن ينظر إليه يُشفى على الفور (عدد ٢١:٤-٩). ومع أن رواية الكتاب المقدس لا تقدم وصفاً تفصيلياً لارتفاع الأفعى، إلا إن القديس غريغوريوس بالاماس يرسم صورة واضحة جداً إذ يقول أن موسى رفع الثعبان أفقياً على العمود الرأسي، مشكلاً ذراعي صليب (PG.133-136). إلى ذلك، تنبأ يسوع المسيح نفسه، في إنجيل يوحنا، عن موته على

الصليب، إذ شبهه بارتفاع الأفعى البرونزية في البرية، قائلاً: "وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ" (يوحنا٣:١٤).

أيضاً في العهد القديم، خلّصت علامة الصليب النبي دانيال والفتية الثلاثة شدراخ وميشاخ وعبدنغو. هؤلاء عاشوا في بابل في زمن السبي. عندما أُلقي الشبان الثلاثة في أتون النار، نجوا بفضل تدخل الله المعجز (دانيال ٣:٢٣)، تماماً كما نجا دانيال نفسه عندما طُرح في جب الأسود (دانيال ٦:٢٣).

بالطبع، في هذه الحالات أيضاً، لا يقدم النص الكتابي صورة إنقاذ الفتية الثلاثة، بل إن صورة خلاصهم وردت على لسان أندراوس الكريتي، الذي أعلن أن الفتية الثلاثة في البداية، ومن ثم النبي دانيال نجوا برفع أذرعهم إلى السماء على شكل صليب (PG 97 ، 1040-1041). هذا التقليد نفسه محفوظ في ترنيمة الكنيسة التي نرتلها يوم أحد رفع الصليب: "إن المعظم في الأنبياء دانيال لما طُرح في جبّ الأسود وقتاً ما وبسط ذراعيه بشكل صليب نجا من افتراسهم بغير أذية مباركاً المسيح الإله إلى الأدهار" (الأودية الثامنة، قانون السحرية).

في العهد القديم، لا يَشار فقط إلى صليب المسيح بل أيضاً إلى أحداث أخرى، مثل ولادته وآلامه وقيامته. لكن الصليب هو الوسيلة التي تمجَّد بها المسيح وانتصر على العدو الشرير، وغلب الموت، وبقيامته جلب البشرية إلى حالة جديدة من الحياة متحررة من قيود الموت والفساد.

على الرغم من أن الصليب كان رمزاً للمَقت والموت في وقت ما قبل المسيح، إذ بحسب ضوابط سفر التثنية، فإن الذين ماتوا على الصليب كانوا يُعتبرون ملعونين (تثنية ٢١:٢٣)، فمن خلال صلب المسيح أصبح رمزاً للانتصار على الموت والمجد والعظمة. لقد فقد الصليب هالة الذمّ والانحطاط والمَقت والإذلال وأصبح تعبيراً عن القداسة والبركة والكرامة والمجد والعظمة.

كيف حدث هذا التغيير الجذري، هذه المعجزة، هذا التحول؟ بطبيعة الحال، بتجسد الابن وكلمة الله: "الكلمة صار جسداً" (يو ١:١) وصلبه الذي من خلاله "مات من أجلنا" (رومية ٥ ـ ٨). "وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ" (فيلبي٢:٨)، "افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا" (غلاطية ٣:١٣).

فتح صليب المسيح وقيامته الطريق إلى الفردوس وأزاح السيف المتقلّب الذي أغلق الطريق إلى شجرة الحياة (تكوين ٣:٢٤). إذا تمعنّا بترنيمة عيد إكرام الصليب، فسوف نفهم الثناء الذي أُغدِق على صليب الرب، إذ يُدعى: "حارس باب الفردوس؛ انتصار الملوك؛ افتخار الكهنة؛ ثبات المؤمنين؛ فردوس البيعة؛ مجد الكنيسة وافتخارها؛ اعتزاز المسيحيين؛ رسالة الرسل الخاصة؛ تاج الشهداء؛ الزينة الثمينة للأنبياء" (غروب أحد إكرام الصليب).

Source: Theodore Rokas. The Sign of the Cross in the Old Testament. Pemptousia. 5 October 2019. https://pemptousia.com/2019/10/the-sign-of-the-cross-in-the-old-testament-2/

كيفية التعامل مع الأفكار السيئة والإخفاقات في الحياة الروحية

المتروبوليت أثناسيوس مطران ليماسول

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

نادراً ما تكون حياتنا الروحية مُمهَّدةً وهادئة وساكنة لمدة طويلة من الزمن. الظروف والأفكار وحتى الطقس – كل ذلك يمكنه بسهولةٍ أن يُظلم نفوسنا، أو على عكس ذلك وبشكلٍ غير متوقعٍ، أن يُسعِدها. كيف يمكننا عيش حياةٍ روحيةٍ فيما الإنسانُ غير مستقر جداً؟ تحدث المتروبوليت أثناسيوس مطران الكنيسة الأرثوذكسية القبرصية، ليماسول، عن هذا في لقاءٍ مع الشباب.

جميع الأفكار التي تؤثر في حالة النفس تأتي إما من الله (فتُحدث تغييرات جيدة) أو من الشيطان (فتحدث تغييرات سيئة)، أو من الإنسان نفسه (جيدة وسيئة). نعرف الأفكار الجيدة من ثمارها. إذا أصبحنا أكثر تواضعاً، ومُصلِّين أكثر، وأكثر وداعةً وصبراً ودفئاً ونُبلاً وحساسيةً، فإن ذلك نتيجة فكرٍ صالح. ولكن ماذا علينا أن نفعل إذا لم تكن جميع تغيراتنا صالحة؟

يمنعنا الفكر الشرير من التفكير منطقياً

يؤثر الإنسان نفسه أيضاً في عالمه الروحي، منتجاً أفكاراً جيدة أو سيئة، بحسب "آليته" الداخلية وفيما إذا كانت مضبوطة بشكلٍ صحيح أم لا.

سأضرب لكم مثلاً من الإنجيل. حين أتت الزانية إلى المنزل ومسحت قدمي المسيح بالطيب، كان العديد من التلاميذ ساخطين، وخاصة يهوذا، الذي كان محباً للمال. بدأ يقول: "لماذا تهدر هذه المرأة هذا الطيب الغالي الثمن بلا طائل لتمسح قدمي المسيح؟". الفكر السيء كان أنها تهدر الطيب. ولكنْ يقول الإنجيل لاحقاً إنه لم يكن يكترث لأمر الفقراء، بل كان بكل بساطة جشعاً وأراد الحصول على مال هذا الطيب ووضعه في صندوق المال ومن ثم استخدامه لأغراضه الشخصية.

غالباً ما يسألني الناس لمَ لدينا كل هذا الترف في الكنيسة؟ ولكنْ أروني ما هو الأمر المُترف الذي لدينا. إذا شئتم اقطعوا لأنفسكم قطعةً من حامل الشمع وخذوها إلى المنزل وبيعوها وتقاضوا المال. ألا ترون أنها برونزية؟ كما ترون، فالفكر السيء لا يدع الإنسان حتى يُفكرْ بشكل منطقي.

أو، يعطي أحدُهم صدقة، يُقدم ٥ يورو ويبدأ بالتفكير: "ربما هذا ليس ضرورياً. ما هي الـ ٥ يورو؟ هل سيغتني الشحاذ منها؟ لا بد وأن ذلك احتيال". ربما يكون الأمر كذلك، ولكنه مباشرةً يثير فكراً سيئاً يحرف النفس تجاه الشر، جاعلاً إياها عنيدة ومقاومة للنعمة.

يحصل أن تأتي الأفكار الشريرة من الشياطين. ومع ذلك، فإن هنالك تغييراتٍ فيزيولوجية صرفة أيضاً. إنك تفكر بشكلٍ مختلف في الصباح، خلال النهار، مساءً، وبعد منتصف الليل. تفكر بشكلٍ مختلف في الظلام وفي

النور، حين يكون يوماً كئيباً، حين تهب ريح جنوبية، أو حين يكون يوماً مشمساً. يلاحظ الكثيرون أن الناس يكونون في مزاجٍ أفضل في الأيام المشمسة، وحين تكون برفقة أناسٍ فرحين وشاكرين فإنك تبتهج معهم.

ما العمل حين تكون النفس "مغمومة"؟

لماذا درس الآباء القديسون كل هذا؟ ليعرفوا متى تكون هناك معركة روحية حقيقية دائرة، ومتى من الممكن تجاهل التغييرات الداخلية. يخبروننا أمراً رئيسياً واحداً: علينا تعلُّم التعامل مع manage ما يجري معنا. حين تكون نفسي مغمومة، من المهم ألا أسمح لنفسي بالاكتئاب، وألا أبدأ بالتحدث بقسوة وبشكلٍ هجومي وبعصبية، أو أن أبتعد ولا أقبل شخصاً آخر.

أياً تكن التغييرات التي تطرأ في نفوسنا، علينا أن نحافظ على روتين الحياة الروحية ونكون هادئين في تعاملاتنا مع الآخرين. إن الإنسان مخلوق على صورة الله، "حسنٌ جداً"، ومدعو ليكون مثل "أبينا [السماوي]". وبقية ما يحدث معنا – السلوك السيء والعصبية والكلمات السيئة والبذاءة – ليست ذواتنا الحقيقية.

ما الذي يتطلبه التغيير نحو الأفضل؟

من المهم أن نتعلم كيف نتصرف بطريقة لا تؤذي الآخرين، ولا نتحدث باستخفاف، ولا نكسل، وأن نحافظ على طريقة حياتنا مهما جرى. الدقة في تتميم قانون صلاتنا يساعد في ذلك. دعونا لا نقول صبيحة الأحد: " لسببٍ ما، لست في مزاج جيد. لن أذهب إلى الكنيسة اليوم". اذهب، سواء كنت في مزاج جيد أم لا. حتى ولو بدأ ذهننا بالتفكير: "إلى أين أنت ذاهب؟ سوف تغط في النوم هناك. أنت مليء بالأفكار، في داخلك أفكار سيئة. لا تذهب!" – علينا ألا نتراجع ونغير قانوننا [الروحي أو قانون الصلاة] بسبب تغير نزعتنا النفسية [مزاجنا].

كيف نتعامل مع الأفكار السيئة، وهل علينا تقريع أنفسنا عليها؟

من الأفضل قطع الأفكار السيئة مباشرة وعدم الخوض فيها. إنها كصندوق قمامة؛ من الأفضل أن ترميها مباشرة لئلا تتلوَّث بها. بالنسبة للسؤال حول ما إذا كان يجب تبكيت أنفسنا لأجل الأفكار السيئة، فإننا بحاجة تمييز. إذا كان بإمكانك تحمل ذلك، فهذا جيد؛ الآباء القديسون فعلوا ذلك. وأما بالنسبة للشبان، فمن الأفضل لك حفظ نفسك في المحبة والامتنان. إننا بحاجة لتمييز جيد أيضاً، وأبٍ روحي جيد، وإلا فمن السهل الوقوع في اليأس.

إذا كنا مفرطي الحساسية، وندين ونوبخ أنفسنا، عندها سنبدأ نكتئب أو نيأس. وبما أنه من السهل الوقوع في اليأس في زمننا، فمن الأفضل ألا نقحم أنفسنا في ذلك.

إن موهبة التوبة مع الدموع، والتي حازها القديسون، تأتي من العمل الروحي، وليس من توبيخ الذات. دموع التوبة هي المرحلة الأولى، وبعدها تصبح دموع محبة!

العمل الروحي ولوم الذات مهمان، ولكن الإنسان المعافى هو من يمكنه القيام بذلك. ولكن إذا كان الإنسان ضعيفاً روحياً وعقلياً، من لديه أعصاب ضعيفة، لن يتمكن من تحمل ذلك، سيصبح قانطاً وفاقداً الأمل.
لهذا قال المسيح للقديس سلوان: "احفظ ذهنك في الجحيم ولا تيأس".

Source: Metropolitan Athanasios of Limassol. How to Cope with Bad Thoughts and Failures in the Spiritual Life. Translation by Jesse Dominick. Miloserdie.ru. 2/22/2023. https://orthochristian.com/151137.html

أيقونة السيدة المنجية من الأفكار الشريرة مكتوب عليها " إفرحي يا بحراً غرَّقَ فِرعونَ العقليّ" (من خدمة المديح)

ذهني يجول في وقت الصلاة

المتقدم في الكهنة جاورجيوس دورباراكيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

"اسعَ جاهداً باستمرارٍ لتركيز ذهنك الذي يضيع نفسه في reveries. لا يطلب الله تركيزاً كاملاً في الصلاة من جهة رهبان الدير (كما في حالة النساك). لذلك لا تكتئب حين يُسلَب ذهنك. على العكس تماماً: اِفرح بأنك تُعيدُه دائماً. بأي حال، إننا نجد مقدِساً فقط بين الملائكة، أي مكانٌ آمنٌ حيث لا يمكن لأذهانهم أن تؤسَر" القديس يوحنا السلمي، السلم إلى الله، الدرجةالرابعة، ٨٨).

إنك تشتكي من أن ذهنك غالباً ما يجول، إما أثناء الخِدَم في الكنيسة أو في وقت الصلاة الشخصية. تبدو منتبهاً، وقد تكون ممسكاً بكتاب صلاة، أو ربما تقولها مع أنفاسك، ولكنك تكتشف، ما يزعجك كثيراً، أنه غالباً ما يكون جسدك وحده حاضراً. ذهنك منصبٌّ على أي أمرٍ آخر باستثناء الصلاة: أعمال غير منتهية، مشاكل عائلية، أمر شخصي يزعجك، تصرف أو لباسُ أحدٍ ما في الكنيسة. تحزنُ و تكتئب وحتى أنك قد تيأس من نفسك. لأنه ستكون هناك مراتٌ تُلفي فيها نفسك حتى تتخيل الخطايا.

يقدم لك القديس يوحنا التعزية والدعم بأسلوبٍ مُتفهِّم. أحلام اليقظة، شرود الذهن هذا، لا يصيبك أنت فقط. لقد أظهرت التجربة والبصيرة بأن هذه الحالة لا تحدث فقط مع الرهبان، بل حتى بين العظماء المتقدمين في القداسة. بين القديسين أنفسهم. نادراً أو أبداً، ستجد شخصاً يركز ذهنه مئة بالمئة على الرب، حتى في ساعة الصلاة. فكرٌ ما، وربما فكرٌ صالح، سيحوذ على انتباههم ويلهيهم. كما يقول القديس يوحنا: تجد مقدِساً فقط بين الملائكة.

ولكن، لا تشعر بالرضى عن نفسك بمجرد معرفتك لذلك. تكشف أحلام اليقظة كم أن الطريق طويل أمامنا. وما مدى افتقارنا إلى الحياة الروحية. لذلك، من جهة، اسع جاهداً لإعادة ذهنك إلى كلمات الصلاة كلما جال؛ هذا جهادك الروحي اليومي. ومن جهة أخرى، افرح وابتهج لأن ربك وإلهك يُسرُّ حين تخوض هذه المعركة. لا تنسَ أبداً أنه، في النهاية، ليس الناس الذين بلا خطيئة (وهم غير موجودون بشرياً) هم القديسون، بل أولئك الذين يجاهدون. لذا لا داعي للقلق طالما أن هناك جهاداً داخلياً وفرحٌ الله. يجب أن تعلم أيضاً أن هذه المعركة تجتذب نعمة الله وتسمح لك بالوصول إلى درجة من النعمة حين لا يجول ذهنك بأي درجة، حتى خارج أوقات الصلاة.

Source: Protopresbyter Georgios Dorbarakis. My mind wanders at the time of prayer. Pemptousia. 24 February 2023. https://pemptousia.com/2023/02/my-mind-wanders-at-the-time-of-prayer/